

نورا ناجي
أطياف كاميليا
رواية
دار الشروق
t.me/qurssan

أطياف كاميليا

نورا ناجي

طبعـة دار الشروق الأولى ٢٠١٩

تصنيف الكتاب: أدب/ روايـة

٧ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقـم الإيداع / ٢٠١٩
ISBN 978-977-09-0000-0

تصميم الغلاف:

نورا ناجي

أطياف كاميليا

دار الشروق

إلى فاتيما..

«لا شأن لما يُرى فكل الشأن لما لا يُرى»

الأمير الصغير ـ أنطوان دي سانت أكزوبيري

الضوء كالحلم. تمد يدها لتمسك ذرات الغبار السابحة في شعاع الشمس الداخل من بين ضلفتي الشيش المواربتين، والساقط على ظهر عمتها ليغمرها ببهائه من أعلى شعرها إلى قدميها. وهي تمشط شعرها الأسود الطويل أمام المرآة الكبيرة ذات الإطار البيضاوي المذهب. تنظر إلى انعكاسها في المرآة وتضحك، تراها جميلة، وجهها الدائري يضيء بأشعة الشمس، تقف بقميص نوم خفيف شفاف، تجدل شعرها في ضفيرة وتبتسم.

سحرتها نظرة عينيها، صارت كالمنومة، تقف على بُعْد طفيف منها، غير قادرة على الاقتراب، تتابعها وهي ترتدي فستانًا أبيض لم ترَه عليها من قبل، اعتادت رؤيتها بالعباءات السوداء حتى بدا الأبيض شاهقًا عليها، ثم رأتها تمسك بالمقص الكبير، وببساطة، تجز الضفيرة من أعلى رأسها.

شهقت وتراجعت للوراء، فرأتها تقترب منها، وضعت الضفيرة في يدها، وقبلتها على وجنتها. وضعت المقص على المائدة، ثم ذابت في المرآة وسط الضوء.

١

كل يوم، كانت تتساءل عن حقيقة حياتها. الأيام مكررة وكأنها كلمة رددتها طويلًا حتى فقدت معناها، تسير في الشارع فلا ترى شيئًا، تنظر دائمًا إلى ما تحت قدميها، الهواء ثقيل، والموجودات ضبابية، لا شيء يبدو حقيقيًّا، لا شيء لتتمسك به.

تقول أمها إنها جاءت الحياة على عجل. كانت تحضر العشاء لجدها وأبيها وعمتها، تشعر بالضيق لأنها حامل في شهورها الأخيرة، ولا أحد يفكر في مساعدتها أو حتى يتناول الأطباق منها. تقول بأنها حتمًا شعرت بها، فقررت الخروج فجأة؛ لتنعم ببعض الراحة. في لحظة شعرت برأسها بين ساقيها، صرخت بفزع ليحملوها حملًا إلى السرير، لم يجدوا حتى وقتًا لنقلها إلى المستشفى، ولدت في البيت بلا مساعدة، استدعى جدها داية عجوزًا متقاعدة تعيش على مقربة من بيتهم. حين جاءت كان كل شيء قد انتهى.

لم تبكِ عند ولادتها، كانت زرقاء تمامًا وساكنة، أدركت عمتها أن الحبل السُّري ملتف حول رقبتها، وأنه يمنعها من التنفس، فحملتها بين يديها، وعكفت على حله، يكمل أبوها سرد الحكاية، كان يستغل أيّ فرصة للحديث عن شقيقته، تسرح عيناه ويبتسم وكأنه يراها أمامه، يصف لابنته المشهد بالتفصيل الممل، يخبرها أن عمتها كانت تبكي وهي تفك الحبل رويدًا رويدًا، فيعود اللون الوردي إلى

بشرتها، عندما انتهت، ظلت تضرب وجنتيها برفق، حتى انفجرت في البكاء.

يحكيان لها هذه الحكاية عشرات المرات، تستطرد الأم في وصف معاناتها وشقائها في أعمال البيت لتأتي هي وتنقذها، ويتحدث أبوها فقط عن موقف أخته البطولي، حتى بدأت في رؤية كل شيء، شعرت بأنها تتذكر شكل الغرفة وقت ولادتها؛ السرير الغارق في الدماء، والإضاءة الصفراء الشاحبة، وأمها وهي راقدة تصرخ وتسأل إذا كانت قد ماتت، وأباها الواقف بلا حيلة، وعمتها وهي تحملها، ودموعها تسيل غزيرة وتتساقط داخل فمها الصغير.

عندما اختفت عمتها، كان عمرها ١٢ عامًا، أخبرتهم أنها ذابت أمامها في المرآة، جزت شعرها بالمقص، وتلاشت. لم تجد ضفيرتها التي تركتها في يديها، فلم يصدقها أحد وكأنها طفلة صغيرة تهلوس في عالم خيالي من صنعها.

بحث أبوها عن العمة في كل مكان، بينما وقفت هي أمام المرآة بالساعات، تنتظر ظهورها على الجانب الآخر، أو حتى عودتها عبرها من جديد.

ذات يوم رآها أبوها تحدق في المرآة، نادى عليها مرات عدة فلم تنتبه، جذبها من ذراعها وهو يعتصره بعنف، سألها عما تفعل فأخبرته بأنها تنتظر عودة عمتها. كان ينظر لها بخوف، وهي تحكي مرة أخرى حكاية عمتها التي ذابت في المرآة أمامها. كانت تحكيها بآلية وصدق أرعباه، وجعلاه بعد ذلك بفترة ينزع المرآة من مكانها ويخفيها. علق بدلًا منها صورة كبيرة لعمتها وكأنه يؤكد رحيلها.

لكنه لم يسمح لأمها بالتخلص من ملابسها وكتبها. كانت تتذمر من تكدس أشيائها في الغرف فأخبرها بأنه لم يدفنها بعد، ولم يفقد الأمل في عودتها، وسألها عما ستشعر به لو عادت ووجدته قد نسيها، مثلما نسيها زوجها وتزوج بعد اختفائها بأشهر.

لكن الحقيقة أنهم نسوها وكأن الشهور مرت عليهم سنين، كبرت الفتيات، وباتت الأم تتحاشى الحديث عنها، صار اسمها من الممنوعات في المنزل، إذا جاءت سيرته يرتبك الجميع، ويتحول مسار الكلام.

في الصف الأول الثانوي، أصبحت أقرب شبها بها من أيّ وقت مضى، ظهرت عمتها من جديد في ملامحها، كانت أمها تنظر إليها في وجل، تنقل نظرها بينها وبين صورتها، يفزعها التشابه، ويطمئنها أيّ اختلاف تظهره في الشخصية أو طريقة الكلام والابتسام.

أما أبوها فكانت قسوته تزداد كلما كبرت، كلما رآها تتحول إلى أنثى، إلى نسخة أخرى من أخته، دائمًا ينظر إليها بخوف، نفس الخوف الذي رأته يوم وجدها تحدق في المرآة، كان يعنفها إن أوقعت كوبًا، يضربها لو تأخرت دقائق بالأسفل. حتى الرسم الذي تحبه حرمها منه، أي جدال تدخله معه ينتهي بصفعة مفاجئة على وجهها حتى نسيت الكلام.

كانت تفضل الرسم على القراءة، لكن بمنعها منه، أدمنت قراءة مجلة «نصف الدنيا» التي وجدت أعدادها القديمة في الشرفة، كان كل عدد يضم تحقيقًا لعمتها. تجلس في الشرفة لتبتعد عن الصخب والصراخ، تفضل البحلقة في السماء على الحديث، تتصفح الكتب

والمجلات القديمة بنصف اهتمام لتجد عذرًا للانعزال، لكنها تقرأ تحقيقات عمتها بشغف، تنظر إلى الاسم المطابق لاسمها، تلمسه وتتأمل حروفه، ترحل بخيالها إلى الأماكن التي زارتها عمتها، تدقق في الصور التي صورتها لمعرض فني، أو لشارع من شوارع القاهرة، أو مسجد من مساجدها القديمة. تحاول التفكير فيما فكرت فيه، وكيف شعرت عند التقاط كل صورة، وكتابة كل كلمة.

شعرت بأنها لو كانت ظلت بجوارها، ربما كانت ستصبح غير عادية، تملك شغفًا وموهبة وإحساسًا بالحياة. وليست مجرد وعاء فارغ، صامت، لا يشعر بالانتماء لشيء، ولا بالحب لأحد، لا ترغب سوى في الابتعاد، بالتحليق في عالم آخر، وكأن حياتها ليست لها، وكأن عائلتها أغراب، وأن هذا البيت ليس بيتها، ولم تفهم لماذا تفكر بهذه الطريقة وهي لم تغادر هذه المدينة قط. لم تعرف العالم ولا البشر، ولم تشعر بالحياة حقًّا. تمر عليها بخفة وكأنها نسمات تمس جلدها وتتركه بلا أثر. كانت تحلم بيوم تخترق فيه الحياة، ترى نفسها تغرق في النور، تذوب فيه كما ذابت عمتها في المرآة. تختفي في المعرفة وتدرك أبعاد كل شيء.

كان جسمها يبدو مسكونًا بروح أخرى تتوق للتحرر، كلما ضاقت بها الدنيا تذكرت قصة ولادتها، والقيد الذي فكته عمتها عن عنقها، وتمنت لو تظهر مرة أخرى وتفك قيودها الحالية من حول جميع أطرافها، لو تعود من المرآة وتنقذها، أو تأخذها معها إلى داخلها.

٢

مثل عمتها، اعتادت الجلوس في الشرفة الخلفية وحدها معظم الوقت، كان بابها مغلقًا دائمًا بترباس صدئ، أما مدخلها فكان الشباك المطل عليها من غرفتها. ثُلثا حدوده داخل الشرفة، والثلث الأخير خارجها، تدلي قدميها بحذر لتهبط إلى أرض الشرفة بدلًا من أرض الشارع، مستشعرة لذة المغامرة الخفية والخطر الذي يمكن السيطرة عليه.

كان أبوها يغضب بشدة عندما تدخل الشرفة بهذه الطريقة، يصيح بأنها ستموت، يصفعها على وجهها كالعادة كلما ارتكبت شيئًا يراه مصيبة، محذرًا إياها من تكرار الفعلة، لكنها لم تتوقف عن ذلك. في المساء بعد أن يخلد الجميع إلى النوم، تنهض بحذر وتقف على فراشها الملاصق للحائط، تفتح الشباك وتقفز.

كانت عمتها تفعلها طوال الوقت، تدلي قدمًا واحدة إليها ثم تحرك جسدها إلى اليسار قليلًا، وتهبط بالأخرى، ترقد هناك على كليم قديم، تتطلع إلى السماء بالساعات، أو تقرأ كتابًا أو مجلة. ومثلها صارت تفعل، تهبط إلى الشرفة الضيقة وكأنها تهبط إلى الجنة، تشعر بها تحتويها وتخفيها، تصبح حرة، تنظر للنجوم وتشعر أنها قادرة على السير بينها.

مدت يدها إلى الخزانة القديمة لتخرج مجلة من مجلات عمتها، لكن يدها عادت بكراسة صغيرة مصفرة أوراقها، كتب فيها بخط سيئ،

لم تستطع قراءة الصفحات الأولى، البقع البنيّة الداكنة تخفي الكثير. اعتقدت أنها كراسة من كراسات أبيها التي كان يجمع فيها قصائد الشعر المفضلة لديه، أو ربما دفتر تحضيره في المدرسة، لكنها انتبهت إلى الخط الذي لا يشبه خطه، كان خطًّا صغيرًا أقرب لخط الأطفال، مكتوبًا باللون الأزرق فقط، لم تستطع تبين الكثير مما كُتب، لكنها أدركت فجأة أن هذا خط عمتها الذي لم ترَه من قبل، وظنت أنه مسودات مقالاتها المنشورة التي قرأتها كلها. لكنها لم تكن كذلك، كانت أقرب إلى رسائل لشخص بلا اسم، أو يوميات بلا تواريخ.

استهواها الأمر بعد حين، وشعرت أن هذه المذكرات كنز مخفي لا يجب أن تُطلع عليه أحدًا، رغم أنها تعرف بأن أباها لا يزال آملًا في عودتها في قرارة نفسه، ينتظر أي إشارة أو دليل على مكانها وإن كان يتظاهر بنسيان الأمر واستسلامه للواقع. احتفظت بالكراسة بين أوراقها في انتظار الوقت المناسب لتختلي بها وتعرف فحواها دون أن يفاجئها أحد.

كان البيت صامتًا، الجميع يحظى بقيلولة الظهيرة عداها، لم تكن قادرة على النوم في النهار، تقضي الساعات الحارة بداخل الشرفة أو ترقد على سريرها مبحلقة في السقف، موسيقى أغنية لعمرو دياب تتسرب من الشباك. يرعبها صوت الوتريات المقبض في بدايتها، الشبيه بصوت دقات قلبها المضطرب.

تثير فيها الكلمات شيئًا لا تعرفه، كانت الأغنية تنبعث من كل مكان تذهب إليه؛ المحلات، السايبر، السيارات في الشارع، وشعرت بأنها تتقصدها هي بالذات، وتذكرها بأنها عالقة، تعيش ولا تعيش.

حاولت تجاهل الأغنية، مشت على أطراف أصابعها حتى لا توقظ شقيقتها، أخرجت الأوراق من بين دفتي كتاب الفلسفة المهمل في الدرج بعد انتهاء الدراسة، عادت إلى سريرها وهي تنظر للباب الموارب بين دقيقة وأخرى، فتحت الورقة الأولى المثنية فقرأت عنوانًا غريبًا، ما الزمن؟ لم يدر بخلدها مثل هذا السؤال من قبل، ولم تفهم معناه أصلًا، بدأت في قراءة السطور، وشعرت بالشعر ينتصب على ذراعيها.

كانت تقرأ كل سطر بسرعة خاطفة، ثم تعود من جديد لقراءته كلمة بكلمة، وانتبهت إلى أن هذه الأوراق أقرب لرسائل من عالم آخر، تفتح لها فجوة عبر الزمن، وتنقل لها وقائع لا يعرفها أحد.

ما الزمن؟
من أوراق كاميليا عاطف

اكتشفت اليوم أنني لم أكتب إليك من قبل، الكتابة هي طريقة العاجز عن الوصل، أما نحن فلم نكن في حاجة إلى ذلك، لم نكن في حاجة إلى بذل أيّ جهد لفهم بعضنا البعض، للوصول إلى بعضنا البعض، رغم كل الصعوبات التي كانت تجعلنا محكومين بأوقات محددة. كنت قادرة على رؤيتك بانتظام، النظر إلى عينيك مباشرة، لمسك وسماع صوتك، أجلس أمامك، أتحدث أو لا أتحدث، كل فعل يبدو اليوم لي مستحيلًا، كان أمرًا معتادًا لدرجة لا تصدق، لدرجة تدهشني وأنا عاجزة حتى عن تذكر نبرة صوتك، ذابت من الذاكرة، كما تذوب كل يوم تفصيلة مختلفة منك. أحاول الإنكار، أدافع عن ذاكرتي فأمنحك صوتًا آخر، ملامح أخرى، يتداخل شكل وجهك مع وجوه أخرى أقابلها كل يوم، فأشعر أن هناك شيئًا خاطئًا. أشعر بالقلق، أخاف فعلًا وأنت تتحول إلى صورة مطموسة المعالم في خيالي. أحلم بلحظة واحدة ماضية أقف فيها أمامك، أنظر إلى وجهك فقط، لا يوجد ما هو أكثر قسوة من الحرمان من فعل كان ذات يوم معتادًا مثل التنفس.

منذ أن رحلت، وأنا أعيش على ذكرى هذه الأوقات المختلسة من الزمن، أنتظر مساء كل يوم بعد أن ينام الجميع لأختلي بنفسي، لأعيد إحياءك أمامي في ظلام الغرفة، أحكي لك كل ما حدث خلال اليوم، آخذ رأيك في كل ما سيحدث، أحاديثنا المختلقة تبدو لي

أكثر واقعية من كل المناقشات التي خضناها، أو كلمات الحب التي رددناها، دائمة ومستمرة، تشعرني بوجودك داخلي، وتجعلني قادرة على تحمل الوقت الطويل الذي يمر ببطء كل يوم بدونك.

أتذكر جلساتنا التي كانت محكومة بساعات محددة، لم تكن كافية لأخبرك بكل شيء، لم تكن كافية لأشبع منك ومن رائحتك، كنت أريد التحدث معك، أن أقص عليك عشرات القصص التي حدثت لي، بينما تبدو أنت مشغولًا بغير ذلك، تحضنني بسرعة، تقبلني بسرعة، تنام معي بسرعة، لا وقت لديك للكلام؛ لذلك كنت أتكلم أنا معك كل ليلة في خيالي، قبل أن ترحل وبعد أن رحلت. لا أعرف إن كنت أفتقد اليوم وجودك الحقيقي، أم وجودك الخيالي الذي يتسرب من ذاكرتي. الاثنان يمتزجان معًا فلا أعرف ما الأصل وما المختلق، المهم أنني أفتقدك وأنني لأول مرة أشعر بأنني سأحرم منك للأبد.

الغريب أنني أتذكر شكل كل تفصيلة في بيتك؛ الغرفة الصغيرة التي لا تضم سوى فراشٍ وسجادة ملونة، كليمٍ يدويٍّ اشتريته ذات يوم وأنا في طريقي إليك، أذكر حتى يوم شرائه. يومها توقفت السيارة على جانب الطريق الزراعي بسبب الحر الشديد، نزل السائق ليزودها بالماء وسط تأفف الركاب من العطَلة، بينما انشغلت أنا بتأمل السجاجيد الصغيرة التي تباع إلى جانب مماسح السيارات وفوط التنظيف. كنت أحمل الكاميرا كعادتي، التقطت الصور لفرشة الأكلمة على الطريق الذي تتسارع عليه السيارات، كانت منصوبة ومرتبة بدقة تثير الإعجاب، وخلفها السماء زرقاء فاتحة، في المنتصف كليم بدرجات الأزرق، سحرتني ألوانه، تخيلته على أرض غرفتك، يضفي على تجردها بعضًا من الحياة التي كنت أحلم بها معك، حملته طوال

الطريق دون أن أشعر بوزنه ولا مشقة حمله، في مقابل أن أشعر بأنني قادرة على تزيين غرفتك، وكأن هذا الكليم الرخيص سيجعل منها غرفتنا معًا.

أختنق أكثر عندما أكتشف أنني أتذكر شكل الكليم جيدًا، حتى الخيوط المنسلة منه، والتمزق الصغير الذي حدث بجوار حافته، لكنني عاجزة عن تذكر شكل أنفك، وابتسامتك وتجاعيد جبينك.

أجمع رسوماتك من الجرائد التي تتنقل فيما بينها، أحيانًا تُنشر لك مقالات ساخرة قصيرة مع رسمة كارتونية، بجوارها صورة صغيرة لك لا تكفيني، أنساها بمجرد رفع عيني من عليها. أما أنت، وجهك الحقيقي، وأنت متعب، وأنت تمزح، وأنت نائم، وأنت تنظر إليَّ، فيتلاشى شيئًا فشيئًا. يتحول إلى مجرد بقعة ضبابية تعلو جسدك وهو يتحرك في ذاكرتي. أغضب من نفسي، وأتهمها بعدم الإخلاص، لكنه في الحقيقة، الزمن الذي لا يترك شيئًا في حاله، الزمن يحول كل شيء إلى الأسوأ، يدفعنا دائمًا للأمام الذي لا نريده، ويمنعنا من العودة إلى الخلف الذي نشتهيه.

أشعر أن الزمن يحيط بي من كل جانب، يطبق على صدري ويقلق مضجعي، الزمن شاغلي الأول والأخير، تخيل كل الأشياء التي يمكن أن تتغير في حياتي إن تمكنت من العودة بالزمن إلى الخلف. تخيل حياتنا معًا كيف كانت ستتغير. تخيل كل هذه الحيوات التي ترتبت على مسار حياتينا المختلفتين، هل كانت ستختفي، ستذوب في العدم وكأنها لم تكن؟ هل كنا سننساها فعلًا، أم سنظل نادمين على حياة ربما أكثر سعادة، لكنها بلا أشخاص أحببناهم إلى هذا الحد؟ كيف كان العالم سيتغير، وهل رغبتي في السعي نحو سعادتي الخاصة هي

محض أنانية قائمة على حيوات أخرى لا ذنب لها، لا تدري حتى عن وجودي شيئًا؟

ما ذنبي في أن أظل عالقة في هذا الزمن الذي لا أستطيع الاندماج فيه؛ هذا الزمن الذي يُفككني شيئًا فشيئًا، أشعر بأنني أتحلل ببطء وأنا على قيد الحياة، أشعر بأطرافي تذوب، بشرتي تتفتت، عظامي تجف وتصبح أكثر هشاشة، أشعر بقلبي يتشظى، أشعر بالزمن يحلّني كما ينحل الملح في الماء، أستسلم له، وأذوب داخله؟

يجبرني الله على السير في خط زمني محدد دون قدرة على تغييره أو الرجوع فيه، أناجيه طيلة المشوار باسمه السري الذي تراءى لي يوم كنت أرقد على ظهري في شرفتي الصغيرة أتأمل النجوم والصفاء الأزرق الممتد إلى ما لا نهاية، كنت أشعر لحظتها بالاكتمال، إشباع غريب يملأ حواسي ويغمرني بالسكينة، وقتها لمع الاسم في ذهني، أناجيه به منذ لحظتها، يقولون إن الله يُعطي من يعرفه ما يشاء، فلماذا إذن لا أملك شيئًا، ولماذا لا يستجيب لي فيعيدني إلى الوراء؟

طوال الوقت، ألتمس آثار الزمن في كل شيء، في ذبول الزهور في شرفتي، في ملابس ابنة شقيقي التي لا تتوقف عن الانكماش على جسمها الذي يستطيل، في التجاعيد حول عينيَّ وشفتيَّ، في الشوارع التي تضيق كل يوم في مدينتي الصغيرة، في الدهشة التي تختفي، في الصمت الذي يزداد من حولي.

لماذا أخبرك بكل هذا؟ هل أبرر لنفسي ما حدث بأنه قوة الزمن؟ لماذا إذن لا أستطيع نسيان وجودك كاملًا؟ لماذا لا أنسى مشاعري نحوك، ولماذا تظل حاضرًا بنفس القوة؟ لماذا لا أستطيع التخلص

منك؟ سنوات وأنا غير قادرة على التغلب على حزن فقدك. لا أفكر سوى في فرصة ثانية لإصلاح ما حدث، للعودة إلى نقطة البداية، أو ربما إلى ما قبلها بكثير، إلى اللحظة المثالية للظهور في حياتك، والبقاء إلى جوارك، بلا عوائق، ولا مسئوليات، ولا شعور بالذنب يتسبب في ضياع كل شيء.

٣

بدأت كاميليا الدروس الخصوصية مبكرًا استعدادًا للثانوية العامة، كان الطقس حارًّا في شهر يولية، والهواء راكدًا وثقيلًا، والزمن لا يمر. تجلس في غرفة الدرس الخانقة، غير قادرة على التنفس، تسند رأسها على قبضة يدها، وتفكر فيما قرأته في أوراق عمتها.

خيالها يحملها إلى الشوارع التي مشت فيها، إلى الطريق الذي اعتادت السفر عليه، تعود إلى البيت بخطوات بطيئة، ونظرها معلق إلى السماء، تنكمش في سريرها تستدعي العزلة والأحلام، تحتضن المذكرات أسفل الغطاء، تستنشق رائحتها فقط، أو تتشبث بها وكأنها تمنحها الأمان.

في الغرفة الصغيرة النائية عن كل ما حولها، الغرفة المسكونة بالصمت وبضوء شفيف، التي تتمدد روحها فيها ببعض الاطمئنان، تعيش تلك المذكرات كلمة بكلمة، تتأمل طويلًا في خط عمتها، في الطريقة الطفولية التي تكتب بها الكلمات، وتشعر بأن خطها يعكس تلك البراءة التي ظلت ترافقها رغم كل ما حدث. وبدا لها أن عمتها ظلت تحمل براءتها كتعويذة كسر، ربما هي ما حفظت لها التماسك في قلب صخب الحياة التي عاشتها.

بدأت مسافة من العزلة تمتد بينها وبين ما يحدث في البيت، وبدا كل شيء كأنه يجري من بعيد؛ صوت أبيها، وقفة أمها في المطبخ، حركة أختها حولها في غرفتهما، بدا كل شيء يبتعد ويأخذ حجمًا

أصغر كلما اندمجت في يوميات عمتها، وفي أعماقها شعرت برغبة في عيش مثل هذه الحياة، في القدرة على تأمل التفاصيل الصغيرة، والإحساس بهبات الهواء، ورائحة الأشجار، والحب.

في تلك الفترة، في الثانوية العامة، بدأت تهرب من الدروس ولم يعد شيء يعنيها، تشعر بأن الروابط بينها وبين بيتها وبين المدينة والمدرسة والدروس والمدرسين تتآكل كأنها حبال ذائبة، كان تمردها يظهر في لمسات من زبدة الكاكاو على شفتيها، تضعها وهي تركض على سلالم البيت بلا مرآة، تفتح أعلى زرارين في القميص، تزيل الشعيرات الصغيرة بين حاجبيها بملقاط أمها، وتنظر لمن أمامها في عينيه بثبات.

تجلس في الفصل واضعة رأسها على ذراعيها، تغمض عينيها ولا تسمع شيئًا مما يقوله المدرسون. أو تثبت نظرات عينيها على السبورة، وتسرح في عالم آخر بعيد. من يراها يعتقد بأنها منتبهة تمامًا، كان وجهها مصمتًا لا يشي بما يدور في خيالها، فكرت أن هذه بالتأكيد موهبة منحها لها الله لتتمكن من تحمل حياتها التعيسة وواقعها الجاف.

كانت عاشقة للتلصص، تعلق نظرها خارج شباك الفصل في انتظار حدوث أيّ شيء؛ طائرة بعيدة تترك ذيلًا طويلًا من الدخان الأبيض خلفها، عصفور يحط على الزخارف العتيقة أعلى الشباك الطويل، شكل السحاب أو أوراق الشجر وهي تهتز مع الهواء. كانت أيضًا تتابع البناية المقابلة للفصل علها ترى أحدًا، وجهًا غريبًا يقف في الشرفة، سيدة تنشر الغسيل، رجلًا يدخن، طفلًا يلعب، حتى ولو ضوءًا شحيحًا يتسلل من خصاص الشيش المغلق.

تنظر إلى الشبابيك المغلقة وتفكر ما الذي يحدث خلفها، عندما تجد شباكًا مواربًا، أو شرفة مشغولة، تنتبه أكثر، تشعر بشيء لا تعرف مصدره يجذبها لمتابعة البشر الآخرين. ذات يوم، كانت الشرفة المقابلة مفتوحة على آخرها، لمحت امرأة تتزين أمام مرآة، الضوء يغمرها وهي تسرح شعرها الطويل، شعرت ببرودة لا تعرف مصدرها تسري في جسمها، وازدادت انتباهًا إلى المشهد، كادت أن تلقي بنفسها من الشباك المجاور لمقعدها، ولم تسمع صيحات المدرسة تنادي اسمها، وتسألها بصراخ حاد عما تفعله.

تعلقت بها نظرات كل الطالبات دون أن تشعر، لم تفق إلا عندما شعرت بيد المدرسة تجذبها من شعرها، صاحت بها أن تقف، فتمايلت ضاحكة بلا سبب. كانت تنظر إليها بعينين خاويتين، لا ترد على صراخها مكتفية بضحكات متقطعة مستفزة، طردتها المدرسة من الفصل فلم تبالِ، ظلت تتجول في فناء المدرسة سعيدة بحريتها، ظهرت المديرة أمامها فجأة تسألها بصوت حاد عما تفعله في الفناء، أخبرتها ضاحكة أنها لا ترغب في حضور الحصة اليوم.

«ماليش نفس».

تقولها وتضرب بقدمها حجرًا صغيرًا وسط الرمال في وجه المديرة، تجمدت المديرة في مكانها، لم تواجه مثل هذا التحدي السافر طوال فترة عملها وقد قاربت على الخروج إلى المعاش، مدت يدها نحوها بالعصا الخشبية، فجرت الفتاة أمامها، كانت تجري وتضحك ضحكات هستيرية، تتوقف لحظة وتستدير لتضرب الرمال بمقدمة حذائها في وجه المديرة ثم تعاود الجري. لم تتمكن

من اللحاق بها فعادت لاهثة إلى مكتبها، وحررت إنذارًا بالفصل، واستدعاء لوليّ الأمر.

عندما وصل الخطاب إلى أبيها صباح اليوم التالي جن جنونه، كان في طريقه إلى عمله عندما وجد الخطاب في صندوق البريد الخشبي أسفل السلم، أسرع إلى مدرسة ابنته، واتجه لمكتب المديرة التي استدعتها من فصلها.

جاءت كاميليا إلى المكتب بخطوات طبيعية وكأنها فتاة أخرى غير فتاة الأمس، لم تكن تضحك، تنظر إلى المديرة بتساؤل، بدا وكأنها نسيت كل ما حدث، وعندما ثار أبوها في وجهها صرخت بأنها لم تفعل شيئًا.

واجهتها مديرتها بما فعلته، استدعت مدرسة اللغة الإنجليزية التي أكدت كل شيء، بينما تنظر هي لهما برعب، عيناها تدوران في محجريهما وشفتاها ترتعشان. اضطربت الرؤية في عيني أبيها، تذكر شقيقته حين كانت تقف بينه وبين جمال ذات مساء تدافع عن نفسها، تصرخ: أنا حرة، فيود صفعها لكنه يتمالك نفسه. هذه المرة لم يكبت جماح نفسه، صفع ابنته وكأنه يصفع شقيقته، فكر أنه لو كان قد صفع الأخيرة لما اختفت، ربما فاقت لنفسها واعتذرت لزوجها، لم يكن ليحرمها وقتها من المجيء لبيت أبيها، كان سيكتفي بالصفعة ثم يحضنها بعد ذلك، ويخبرها بأنه يريد مصلحتها، وكانت ستفهم وتعقل.

أفكاره سحبته فلم يكتفِ بصفعة واحدة، يضرب الفتاة وكأنه يفرغ عاطفته كلها على وجهها، حتى أوقفته المدرسة، تمسكت بذراعه

وهي تنظر إليه بذعر، لم تتخيل أن يصل الموقف إلى هذا الحد، بينما اكتفت مديرتها بالمشاهدة.

أخذتها المدرسة إلى الحمام لتغسل وجهها، كان ساخنًا رغم برودة الشتاء، تبكي وخيط رفيع من الدماء ينسل من أنفها، وضعت عليها منديلًا ورقيًّا وطلبت منها إرجاع رأسها إلى الخلف، ربتت على كتفها وهي تنصحها بالتزام الأدب، والاعتذار من مديرتها ومن أبيها. عادت بها إلى الغرفة، دفعتها برفق في ظهرها، فتمتمت بصوت آلي وهي تنظر إلى الأرض: أنا آسفة.

٤

لم تعد تطيق المدرسة، تذهب كل صباح لتسجيل الحضور، ثم تخرج من بعد الحصة الثانية إلى الفناء. مبنى المدرسة قصر صغير قديم كان استراحة لخديو ما لا تعرف اسمه في بلدتها، سلم خارجي يصل بين الطابق الأول والثاني، ثم سلالم داخلية مظلمة تقود إلى قبو أسفل الأرض، خصصته المدرسة لفصول التقوية الصباحية، ولبعض النشاطات المنسية لمدرسين لا يعملون.

هربت إلى هذا القبو الذي لا يدخله أحد واختارت أبعد غرفة مغلقة، أرضيتها خشبية، والتراب يغطيها، كانت مظلمة تمامًا، يتسلل إليها ضوء طفيف من كوة نصف دائرية أعلى الحائط، ممتلئة بمقاعد خشبية مكسرة، وملفات قديمة لموظفين وطلبة.

شعرت بالأمان في هذا المخبأ الخفي الذي لن يخطر على بال أحد، تخشاه الطالبات اعتقادًا بأنه مسكون، ولا يدخله المدرسون الذين يهرب معظمهم من العمل قبل انتهاء اليوم الدراسي. تصفحت الملفات باهتمام لا تدري مصدره، تأملت صور الطالبات المدبسة بأعلى الملفات، درست ابتساماتهن ونظرات أعينهن، ووضعت تصورًا لمصير كل واحدة منهن، من تزوجت وسافرت، ومن ماتت في حادث سيارة. كانت تصادف بعض الوجوه والأسماء المألوفة، صديقات أمها، ومعلماتها في المدرسة، ونساء من الجيران.

عندما وصلت إلى ملف أمها، توقفت طويلًا أمام نظرات عينيها

الحزينة، وشعرها القصير الخشن. شعرت بشفقة غريبة نحوها وكأنها ليست أمها التي تعيش معها، وكأنها مجرد فتاة مسكينة عابرة، وفكرت بأنها بالتأكيد واجهت أوقاتًا صعبة.

في البداية تظاهرت بأنها لا تبحث عن ملف عمتها، لكنها كانت تتحرق شوقًا للعثور عليه، بات هدفًا أساسيًّا تنزل كل صباح من بيتها لأجله، في البحث الأول بين كومة الملفات الوردية والصفراء لم تنجح، لكنها قررت تقسيمها إلى ثلاثة صفوف، وأن تتأمل في كل صورة بعض الوقت حتى تصل.

كان ملف عمتها هو الأخير في ثالث صف، ابتسمت وهي تفكر أنها لو كانت بدأت منه لانتقل إلى قمة الصف الأول بمعجزة ما. تأملت صورة عمتها، وسرت قشعريرة في عمودها الفقري عندما أدركت بأنها لا تعرف مصيرها، ولا هي قادرة على تخيله مثل بقية الصور التي لا تعرف صاحباتها. قرأت رغباتها المكتوبة بخط يدها الذي باتت تألفه، درست في القسم العلمي، أما هي فتدرس في الأدبي رغم كراهيتها الكبيرة للفلسفة والتاريخ. انتزعت صورتي أمها وعمتها من الملفين، وبعثرت بقية الملفات على الأرض من جديد، وظلت جالسة في الظلام حتى دق الجرس.

عندما انكشف مخبؤها بالصدفة ذات يوم، اكتفى مدرس التربية الرياضية بمعاقبتها بتنظيف الفناء كله من الأوراق، لم يأخذها إلى مكتب المديرة، ولم يعِدها إلى الفصل، كان يتأملها وهي تنحني ملتقطة الأوراق ويبتسم، شعرت بنظراته على كامل جسمها، فبادلته النظر وابتسمت ابتسامة خفيفة، كان يتلفت حوله خوفًا من أن يلمحه أحد، أما هي فتمهلت أكثر في حركاتها، تنحني أمامه أكثر،

وتهز شعرها، حتى دق الجرس واندفعت البنات خارجات من فصولهن.

شعرت كاميليا بنفسها، وأرادت تجربة تأثيرها على آخرين. اكتشفت مقهى إنترنت في طريقها إلى البيت، دخلته مترددة، فرحب بها صاحبه، جلست إلى أول جهاز صادفها، لم تكن تعرف حتى طريقة تشغيله. جلس جوارها، وسألها عما تريد فعله: مشاهدة فيلم، أو إنشاء حساب على الماسنجر؟ أجابت بالإيجاب على كل شيء، علمها طريقة التشغيل، وأسس لها بريدًا إلكترونيًّا، سألها عن اسمها فقالت: كاميليا، أبدى إعجابه بالاسم، كان ينظر إليها بجانب عينيه وهي جالسة بجواره تتأمل الشاشة بانبهار، لم تعرف ما الذي عليها فعله بالبريد الإلكتروني وحساب الماسنجر، ففتحت أول فيلم ووضعت السماعة على أذنيها.

اعتادت الذهاب كل يوم بعد المدرسة لتشاهد جزءًا من فيلم، وتتعرف أكثر على عالم الإنترنت، باتت توفر مصروفها كله ليكفي إيجار ساعة أو ساعتين على الجهاز، ألفت رواد السايبر وألفوها، كانت لأول مرة تتحدث بلا خجل مع الفتيان، في مثل سنها أو أكبر قليلًا، علموها الكثير، صارت تدردش مع أشخاص لا تعرفهم على الماسنجر، تدخل لقراءة أخبار نجومها المفضلين، تتابع المنتديات الفنية، وبعض المدونات، وتسمع الأغاني الحديثة.

وقعت في غرام مواقع الصور الفوتوغرافية، تكتب كلمات عشوائية في محرك البحث فتظهر لها صور أقرب لما تتخيله؛ وجوه فتيات، مناظر طبيعية، مدن بعيدة، أدركت أن هناك عوالم واسعة خارج مدينتها، وسرحت في أفكارها ـ مهربها ـ إلى هناك.

عندما ظهر كريم في حياتها، كان أول ما لاحظته أنه قريب الشبه من ممثل شاب تحبه الفتيات، شاهدت فيلمًا رومانسيًّا من بطولته، يهرب فيه مع فتاة لبنانية بعيدًا عن تسلط أبيها، يركضان في صحراء شرم الشيخ، ويتسلقان جبالها، شاهدت الفيلم أكثر من خمس مرات، وتخيلت نفسها تهرب مع هذا الشاب الذي يشبهه، والذي يقف على باب السايبر ممسكًا بكوب من الشاي ينظر إليها ويبتسم.

أخيرًا جرؤت على التحدث معه، أخبرته أنه يشبه أحمد السقا فضحك كثيرًا وهز رأسه نافيًا. باتت تأتي أكثر إلى السايبر، لا تذهب إلى المدرسة من الأساس، تجلس فيه على جهاز مستقل أو بجوار أحد أصدقائها حتى موعد الانصراف حتى ولو لم يأتِ، تعود إلى المنزل قليلًا، ثم ترجع في مواعيد الدروس.

يأتي بكوب الشاي فتأخذه منه في دلال، تتعمد الشرب من نفس المكان الذي لمسه بشفتيه، تتحدث بصوت منخفض، وتنظر إليه طويلًا، حتى استسلم الشاب لها.

خريج كلية السياحة والفندقة، لا يعمل، يعيش مع أهله في بيت مجاور للسايبر، يستيقظ ظهرًا، ويذهب إلى السايبر، يبحث عن فرصة عمل في شرم الشيخ أو الغردقة، ويملك هاتفًا حديثًا بكاميرا. يسمح لها بتجربته، تمسك الهاتف وتصور الشارع بالخارج، السيارات المتوقفة، أعمدة الإضاءة، الشجر الصغير، أجهزة الكمبيوتر بالداخل، قطة صغيرة تقف على الرصيف، انعكاسها في زجاج المحل. يضحك من اختيارها للقطات ويخبرها بأن الكاميرا صُنعت لتصوير البشر فقط، فترفع حاجبيها بدهشة.

ذات يوم، كانت تقف معه أمام السايبر كالعادة، لا تعرف لماذا شعرت بهذه الرغبة العارمة في أخذ نفس من سيجارته، فأخبرها أن هذا لا يصح في الشارع، صحبها إلى مدخل بيته، وناولها السيجارة، سحبت نفسًا كما تراه يفعل، فامتلأ حلقها بالدخان، لم تتمكن من نفثه فسعلت، قبل أن تفتح عينيها كان يثبتها إلى الحائط محاولًا تقبيلها.

ارتبكت كاميليا، شعرت بارتجافة ساقيها، وأنها على وشك الإغماء، لكنها دفعته مهددة بالصراخ، تركها تركض إلى الخارج، وصعد إلى منزله.

عندما وصلت إلى بيتها، لم تتمكن من النوم، كانت تعتقد أن القبلات تحدث في الأماكن المغلقة فقط، وبين المتحابين فقط. أقنعت نفسها أنها تحبه، وندمت على جبنها، قررت الاعتذار منه في اليوم التالي.

٥

لم يعرها كريم انتباهًا عندما دخلت السايبر عصر اليوم التالي، كان يوم جمعة ولم تتمكن من مغادرة البيت صباحًا، تعللت بدرس مفاجئ للمراجعة وأسرعت إلى هناك، ذهبت للجلوس بجواره ونظرات محمد تتابعها في صمت. اعتذرت منه، وأخبرته بأنها تحبه، أمسكت يده وألصقت كتفها بكتفه.

اعتادا الجلوس متجاورين كل يوم بعد ذلك، لكنه لم يكرر قط ما فعله مسبقًا؛ الأمر الذي شغل بالها، وأربكها، تساءلت عن عدم محاولته تقبيلها من جديد، وانشغلت بالتفكير في الأسباب، تتدلل عليه بكل ما بوسعها، تميل نحوه وتلصق صدرها بذراعه، حتى أخبرها بأنه يود أن يكونا معًا في مكان بعيد، وحدهما. كل يوم يعيد عليها نفس الجملة، حتى لم تعد تفكر في غيرها.

كانت الامتحانات قد اقتربت ولم يعد الطلاب يذهبون إلى المدرسة، يكتفون بالدروس والاستذكار في البيت، وكانت هي لا تعرف شيئًا عما تدرسه، انتابتها حالة فزع، وبكت أمامه وهي تعترف بأنها سترسب حتمًا، وأنها تفكر في قتل نفسها والانتهاء من كل شيء. كان يبدو متعاطفًا، وأخبرها بأنه يود مساعدتها بأيّ شكل.

تراودها فكرة الهرب كل يوم أكثر؛ كلما تصفحت صور المدن البعيدة، شاهدت فيلمًا، كلما سمعت أغنية، ضربها أبوها، كلما صاحت بها أمها، شعرت بالاختناق من البيت والشارع ووجوه الناس.

لا تعرف كيف وضعا خطة ساذجة مساء يوم أمام السايبر، يتبادلان

الأفكار، ويرتبان للهرب صباحًا إلى شقة جدته في الإسكندرية، لم تفكر أنها مكان يسهل الوصول إليه، ولم يفكر سوى في رغبته الشديدة فيها. وافقته وعادت إلى البيت، وضعت بعض قطع الملابس، أوراق عمتها، وسلسلتها الذهبية التي لا ترتديها، ومبلغًا ضئيلًا كانت تدخره في حقيبة المدرسة، وأخبرت أمها أنها لا بد أن تذهب للمدرسة في اليوم التالي لحضور دروس تقوية في اللغة الفرنسية؛ لأنها لا تفهم شيئًا من مدرس الدرس.

كان ينتظرها أمام المحل المغلق، أسرعا إلى الموقف، وركبا أول سيارة متجهة إلى الإسكندرية، غمرها العرق في لحظات انتظار امتلاء السيارة بالركاب، ولم تتنفس إلا عندما تحركت على الطريق الزراعي.

كانت خائفة، تتشبث بذراعه فيربت على كفها، لم يتحدثا طوال الطريق، هبطا أخيرًا في الموقف البعيد عن المدينة، وسارا مسافة طويلة حتى وجدا ميكروباصًا حملهما إلى مصطفى كامل.

لم ترَ البحر، شعرت بالاختناق والميكروباص يسير من الشوارع الداخلية، حتى اقتربا من وجهتهما. كانت عمارة قديمة في شارع ضيق، بلا بواب ولا حراسة، تشبه عمارتها تمامًا، نفس المدخل الرطب ورائحة العطن، صعدا السلالم محاذرين أن يصدرا صوتًا، فتح الباب بيد مرتعشة ودخلا إلى الشقة المظلمة.

وضعت حقيبتها على الكرسي الخشبي الوحيد في الصالة الضيقة، لم تكن الشقة مؤهلة للعيش، مجرد شقة مصيف بأقل الكماليات، كان يتظاهر بالمرح، ينظف المائدة الصغيرة، ويفتح أبواب الغرف، بينما ظلت هي مكانها بلا حركة.

عندما انتهى مما يفعله، دخل الحمام وغسل وجهه ويديه، أخبرها

أن بإمكانها فعل المثل، حاولت الوقوف على قدميها والتوجه للحمام، لكنه اعترض طريقها، احتضنها فاستسلمت له، وعندما بدأ بتقبيل عنقها، عاودها الشعور بالفزع، أطبق شفتيه على شفتيها، فلم تتمكن من التنفس، تحسست يده صدرها وظهرها، بينما يحاول فتح سترتها. شعرت بالدماء تهرب من رأسها، وأن حجرًا ضخمًا يشدها إلى الأسفل. حاولت دفعه فتشبث بها أكثر، ارتعبت، وتساءلت عما فعلته بنفسها. كان شعورها بالندم حارقًا لدرجة أنه منحها قوة مباغتة لدفعه من جديد، حاولت الصراخ لكن الصوت لم يخرج من حلقها وكأنها في حلم قاتم. تمكنت أخيرًا من إخراج صرخات مبحوحة متقطعة، وأفلتت من ذراعيه بمعجزة لم تتبينها.

دخلت إلى أول غرفة صادفتها وأغلقت الباب، وجدت ترباسًا فأوصدته. وتراجعت للخلف في الظلام.

لم يحاول حتى الطرق على الباب، لم تعرف ما الذي يفعله بالخارج، شعرت بأنها عالقة في فيلم رعب من تلك الأفلام التي تشاهدها أحيانًا حين تسهر مع شقيقتها. فتحت شباك الغرفة فوجدته لا يطل سوى على منور ضيق. ازداد شعورها بالاختناق، وجلست على الأرض غير عابئة بالتراب، برأس خاوٍ وأنفاس متقطعة.

بعد ساعات، سمعت صوت الباب ينغلق، ظنت بأنه فخ رتبه لإيقاعها، فانتظرت دقائق أخرى، ثم فتحت الباب بحذر، كانت في حاجة ماسة لدخول الحمام وشرب الماء، نظرت إلى خارج الغرفة فلم تجد أحدًا، هرعت إلى الحمام، وشربت من الصنبور، غسلت وجهها وخرجت مبتلة إلى الصالة. اكتشفت أنه أغلق عليها الباب بالمفتاح، فحملت حقيبتها ووقفت أمام الباب تنتظر.

الفتاة التي تكره المشاهد الرومانسية

من أوراق كاميليا عاطف

أحاول الكتابة إليك على خلفية حوار ساذج بين بطل وبطلة أحد الأفلام الرومانسية القديمة التي تتابعها زوجة شقيقي بشغف، لا أشعر برغبة في رفع عيني إلى الشاشة، أشعر بغضب شديد عند رؤيتي للمشاهد الرومانسية حتى لو كانت ساذجة، لا يعرف أبطال الأفلام من الحب سوى نظراته ولمساته، يعبرون عنه دائمًا بشكل فج وصريح، يؤلمني هذا كثيرًا لأنني غير قادرة على فعل المثل رغم أنني أملك ضِعف المشاعر. تنتهي الأفلام في معظمها بقبلة أو زفاف أو لقاء أو عودة، أحيانًا تنتهي بموت أو فراق، لكنها في النهاية تنتهي. نهاية صريحة وواضحة. وهذا أيضًا يغضبني كثيرًا؛ لأنني لا أنتهي منك أبدًا.

عندما افترقنا، لم يكن قرارنا، تدخلت أطراف أخرى وقررت نيابة عنا. كنت أجلس في نفس مكاني هذا عندما تلقى أبي الاتصال الهاتفي الذي أنهى كل شيء، عندما سألني أبي إن كان ما عرفه هذا حقيقيًّا أم لا .. لم أرد، كنت مشغولة أكثر بالتفكير في أنني لن أراك مرة أخرى.

يومها كنت أشاهد فيلم «الحب الضائع» على التلفزيون مع زوجة شقيقي، وكانت عيناي تدمعان، أتابع سقوط السيارة بسعاد حسني من على الجبل، كحل حاسم لإنهاء الوضع المحرج لـ«رشدي أباظة» وعائلته، وأشعر أن عليَّ أنا أيضًا فعل ذلك، إلقاء نفسي من على قمة

جبل، أو من شرفة منزلنا في الدور الرابع، بما أنه لا توجد جبال في بلدتنا. لأنهي وضعًا صار محيرًا ومشتتًا لي ولك. لكن جرس الهاتف سبقني، وكان له نفس التأثير.

كان وجه أبي محمرًا، ووجه زوجة شقيقي شاحبًا، وكنت أنا مشغولة بمتابعة ما الذي سيفعله رشدي أباظة بعد موت حبيبته؟ ضغط على أذنيّ عزل عني الأصوات فلم أسمع شيئًا، لا الفيلم ولا صياح أبي ولا كلمات زوجة شقيقي المهدئة.

قرر أبي حبسي في المنزل، مُنعت من الذهاب للعمل في المدرسة التي تعذب كثيرًا حتى جاءني بقرار تعييني فيها، ومنعني من السفر إلى القاهرة لحضور اجتماع المجلة، ومن استقبال المكالمات الهاتفية، صودرت كاميرتي وكتبي وأوراقي، ولم يعد مسموحًا لي سوى التطلع إلى السماء من الشرفة الصغيرة المطلة على الشارع الخلفي؛ شرفة ضيقة معلق على جدرانها أشراش البصل والثوم طيلة الصيف. بباب صغير مغلق على الدوام، لكني كنت قادرة على التسلل إليها من نافذة غرفتي.

لم أعرف إلى اليوم ما الذي دار في المكالمة بين زوجتك وأبي، لكنني كنت قادرة على التخيّل، كان البيت متوترًا، وكان أخي لا يكاد ينظر في وجهي، تدخل لي زوجته الوجبات الثلاث وكأنها تتسلل من وراء ظهريهما، تربت على كتفي، أو تتمتم بكلمات لا أسمعها، توقفت وقتها عن السمع والكلام، لكني لم أتوقف عن الرؤية، صفت الرؤية تمامًا، واخترقت حتى الجدران والمسافات، كنت أراك في بيتك تحاول استعادة حياتك، تتظاهر أن شيئًا لم يكن، تبذل مجهودًا لإثبات أنني لم أكن، تذهب إلى العمل، وتعود إلى المنزل، تلاعب طفليك، وتتناول

غداءك، تذهب مع أسرتك إلى الأفراح وأعياد الميلاد والتجمعات العائلية، تتسوقون احتياجات البيت، لا تتحدثون مجددًا عمّا حدث.

وكنت أرى أبي يحاول فعل نفس الشيء؛ حبسي في غرفتي، والتوقف عن رؤيتي، وكأن تجاهل وجودي يكفي لإلغاء ما حدث.

إلغائي من الحياة كان كافيًا لكل الأطراف لإنهاء الموقف، أما أنا فاكتفيت بإلغاء حاستي السمع والكلام، لم أكن بحاجة إليهما، لكني كنت متمسكة بالرؤية على أمل أن أراك.

أدلّي ساقيّ من النافذة إلى أرض الشرفة الضيقة المفروشة بكليم قديم ممزق، يشبه نفس الكليم الذي ابتعته يومًا لغرفتك، أنام على ظهري وأنظر إلى السماء لساعات، أحلم بالتحرر، بمغادرة جسدي والانطلاق إلى هناك، إلى أعلى؛ حيث هذه المساحات الشاسعة من اللا شيء.

لو كان هذا فيلمًا رومانسيًّا، لكنت ظهرت من اللا مكان لإنقاذي، لكنك لم تحاول حتى الدفاع عني، تركتني في لحظة، وكأن هذا لم يكن شيئًا، لا حبًّا ولا ودًّا ولا حتى تعودًا، رغم أنني وأنا بين يديك، كنت أشعر بما هو أكثر، لا يمكن أن تكون ممثلًا بارعًا إلى هذا الحد، ولا يمكن أن أكون ساذجة إلى هذه الدرجة، أنت فقط رشدي أباظة، وأنا فقط سعاد حسني.

لم أكن مندهشة. أنت تعلم أنني توقعت ذلك، وأنني تأقلمت معه بمرور الوقت، كنت أستيقظ كل صباح آملة في أن يستمر حبنا يومًا آخر. لم أفكر في حلول، ولم أطالبك بخطوات. الحُب معقد جدًّا، يحدث في لحظة ويستمر طوال العمر.

كنت قد قررت ألا أقص عليك ما حدث في اليوم التالي لمكالمة زوجتك مع أبي، لكنني أجدني الآن مضطرة إلى ذلك؛ لأن الحياة مختلفة فعلا عن الأفلام؛ ففي الفيلم، لم تأتِ سيدة عجوز للكشف على سعاد حسني والتأكد إن كانت لا تزال بكرًا أم لا؛ ربما لأنها كانت أرملة رفع عنها فضول المجتمع، أما أنا فكنت لا أزال محصورة في هذه المنطقة بين الساقين، وكان أبي مصرًّا على التحقق مما سمعه في الهاتف. رغم رغبته في تجاهل الموضوع أملًا في محوه من ذاكرة العالم.

وقفت زوجة شقيقي في الغرفة وهي تكاد يغشى عليها، تشعر بالخجل أكثر مني، تدير وجهها إلى الحائط وتفرك يديها بتوتر. أما أنا فلم أعترض، استسلمت تمامًا لما يحدث، شرّعت ساقيّ عن آخرهما كما كنت أشرعهما لك، وبعد أن ذهبا، لم أهتم بمعرفة النتيجة، أو ماذا ستقول السيدة لأبي. سحبت الغطاء على جسمي وتمنيت أن ينتهي كل شيء الآن.

في الأفلام فقط ستكون البطلة بريئة تمامًا، لكن سيكون هناك الكثير من الصراخ وربما الضرب، ربما يبكي المشاهدون وربما تموت في النهاية قبل أن تظهر براءتها. لكنني لم أكن بريئة، ولم أمت أو أصرخ أو يضربني أحد. كان الحكم الصادر ضدي بالنبذ قد صدر وجاريًا تنفيذه، ولم أنزعج كثيرًا. الحقيقة أنني شعرت ببعض الراحة، تأقلمت سريعًا مع النبذ، مع ابتعادي عن الكاميرا التي لم تفارقني منذ زمن لا أذكره، ومع الغرفة الخالية من الكتب، ومع الشرفة الضيقة، ومع السماء الواسعة، ومع رائحة البصل والثوم، ومع الوجبات الثلاث الضئيلة التي لا آكل نصفها.

لم أرَ أبي ولا شقيقي شهرًا بعدها، حرمت من ابنة شقيقي كذلك،

لم أرَ مخلوقًا سوى أمها التي كانت تُخفي تعاطفها معي أمامهما، وتظهره سريعًا وهي تحاول إجباري على تناول الطعام، أو إدخالي خلسة إلى الحمام، أو مساعدتي على الاستحمام، كنت أتحول تدريجيًّا إلى هيكل عظمي صامت، وكانت عيناي تبرزان بقوة إلى الخارج، الغريب أن لمعتهما لم تنطفئ، وأنني كنت أرى كل شيء.

لم أشعر بالذنب، ولم أتوقف عن التفكير فيك، سوى عندما دخل عليَّ شقيقي أخيرًا بعد شهور لا أذكر عددها؛ ليخبرني بأنني سأتزوج.

لماذا أحكي لك هذه التفاصيل اليوم؟ ربما لأنني كنت أتمنى أن أعرف أيضًا ما الذي حدث بعدما افترقنا، هل تألمت مثلي؟ هل فكرت فيَّ؟ هل ذهبت مجددًا إلى بيتنا؟ هل بحثت عن رائحتي في السرير الوحيد؟ وفي كل مرة يخيب ظني.

أنا أكره المشاهد الرومانسية التي تذكرني بك، وأكره مشاهد القبلات والأحضان لأنها تزيد اشتياقي إليك، وأكره قصص الحب لأنها لا تشبه قصة حبي لك، وأكرهك لأنني لا أستطيع التوقف عن حبك.

٦

عندما فتح كريم باب الشقة كانت مستعدة، رفعت حقيبتها وهوت بها على رأسه، لم تكن ثقيلة ولم تؤلمه حتى، لكن المفاجأة كان لها تأثير لحظي، جعلتها قادرة على دفعه والانطلاق عبر الباب، لم ترَ شيئًا، ولم تشعر بدرجات السلالم أسفل قدميها. كانت تقفز فوقها وكأن قدميها تمتلكان حياة خاصة وتفكيرًا مستقلًّا، لم تخف حتى من ظلام الدرج، ولم تتنفس إلا عندما عبرت بوابة البناية، نسمة هواء هبت في وجهها عندما خرجت إلى الشارع الذي لا تعرفه، فانتبهت فجأة إلى الزمان والمكان، شعرت بالضياع ولم تعرف إلى أين تتجه، لكنها مشت بأقصى سرعتها حتى انعطفت عند أول ناصية.

قادتها قدماها إلى الكورنيش، كانت تسير كالمجذوبة خلف رائحة البحر إلى أن وصلت، حاولت أن تسأل أي شخص عن كيفية الوصول إلى الموقف، لكنها كانت خائفة لدرجة أن صوتها لم يخرج، جائعة وخائفة، جسمها يرتعش بردًا رغم الطقس الجيد. ظلت جالسة على سور الكورنيش الرخامي البارد تحاول تجاهل المعاكسات والنظرات التي تتفحصها بتعجب، نهضت أخيرًا، ومشت لمسافة قليلة حتى تمكنت من سؤال بائع ترمس صغير السن عن الطريق.

أخبرها بالتفصيل ماذا تركب وكيف تتجه، وظل واقفًا بجوارها إلى أن أركبها سيارة المشروع المتجهة قرب الموقف. كانت على وشك البكاء، غير قادرة حتى على التفكير فيما سيحدث لها إن عادت إلى البيت، لم ترد سوى العودة ثم يحدث ما يحدث، حتى

لو خنقها أبوها، أو ألقاها من الشرفة، على الأقل سترتاح، ستخف دقات قلبها التي تشعر بها في أذنيها، ويهدأ ألم صدرها غير المحتمل. أدركت وقتها أن الخوف مؤلم أكثر من أيّ شيء. أكثر من صفعات أبيها وصياح معلميها، شعرت بأنها تتقزم، العالم واسع من حولها، واسع لدرجة أنها لا ترى شيئًا، ولا حتى نفسها.

عندما وصلت إلى الموقف كان صاخبًا رغم الوقت المتأخر، بحثت عن السيارات المتجهة إلى طنطا، وحسبت نقودها لتعرف إن كانت كافية، جلست على الكنبة الأخيرة بجوار الشباك، أسندت رأسها إلى الزجاج تنتظر امتلاء السيارة وبدء التحرك، مر الوقت بطيئًا، سألت عن الوقت فهالها أن الفجر أوشك على البزوغ وهي خارج المنزل، في ميكروباص ممتلئ بالرجال الذين ينظرون إليها باستغراب، في مدينة غريبة لا تعرف فيها أحدًا.

ترتج السيارة فوق المطبات، فيرتج جسمها كله، تشعر بكل شيء داخلها يرتج، حتى روحها. لم تشعر بالطريق، تشعر كأنها في حلم ستستيقظ منه الآن في سريرها الدافئ، تمنت بشدة لو كان حلمًا، حاولت تركيز تفكيرها علها تتمكن من الاستيقاظ بلا فائدة.

نزلت في نهاية شارع البحر، كان الطريق طويلًا ولم تملك نقودًا تكفي لركوب سيارة أجرة، مشت كثيرًا جدًّا، كأنها إنسان آلي بلا مشاعر ولا أفكار. تسير فقط باتجاه البيت طريقًا تعرفه كما يديها، ترغب فقط في الوصول ثم يحدث ما يحدث.

عندما وصلت أخيرًا، لم تشعر بالراحة التي تشعر بها عادة عند الوصول لناصية شارعها وهي عائدة من المدرسة، لم تشعر بأن هواء حوش السلم منعش، وأن ظلامه مريح، لم تشعر بشيء وهي تصعد

الدرجات ببطء، تقف أمام الباب وتدق الجرس. فتحت أمها الباب وكأنها تقف خلفه، شهقت شهقة صغيرة وشدتها إليها، احتضنتها بقوة وهي ترتعش، لم تنبس بكلمة، كانت عيناها محمرتيْن، خلفها شقيقتها تبكي بصمت.

مرت دقائق قبل أن تدفعها أمها، وتصرخ سائلة أين كانت، كانت تضربها في كتفيها وتصرخ، وأدركت من نظراتها الهستيرية التي تتنقل بين وجهها وباب الشقة، أنها خائفة، خائفة من عودة أبيها في أيّ لحظة، ومن ردة فعله التي تكاد تتخيلها.

سمعا صوته يتعالى شيئًا فشيئًا خارج باب الشقة، فتجمدتا مكانهما، اندفعت أمها تفتح بنفسها الباب محاولة أن تخفف صدمته برؤيتها ابنته واقفة في منتصف الصالة وكأنها لم تفعل شيئًا. أما هي فلم تقوَ حتى على الحركة أو الاختباء، من الغريب أن مشاعرها لا تظهر أبدًا على وجهها، يظل متيبسًا وكأنها تشاهد كل هذا يحدث لشخص آخر، تمسكت بحمالة كتف الحقيبة، وتراجعت قليلًا إلى الخلف، لم تنطق. تعجلت صفعته الأولى حتى ينتهي كل شيء. تعرف تمامًا ما الذي سيفعله، كيف سيبدأ بالضرب، وينتهي بالسباب، لم تخفِ وجهها بيديها ولا اهتزت في وقفتها، أغمضت عينيها فقط عندما رأته يندفع نحوها هائجًا، اهتز مخها من قوة الصفعة، لكن بلا ألم. كان وجهها محصنًا من الضربات بحكم التعود، جلدها أقلم نفسه على الصلابة، وعيناها جفتا من كثرة الدموع.

استمرت الصفعات دقائق قبل أن تجذبه أمها من فوقها، كانت قد انهارت على الأرض بلا صوت، وبدا لأمها أنها ستموت بين يديّ أبيها، ظلت في مكانها على الأرض، متقوقعة على نفسها، تحتضن

حقيبتها كأنها صلتها الوحيدة بالحياة، الضوء أصفر شاحب ضبابي، كأنه حلم. كانت للشقة هذا الصباح رائحة مقبضة، استدعت إلى عقلها ذكريات حزينة غير واضحة تربكها أكثر، البلاط تحت وجنتها بارد وصوت نفسها يمتزج بصوت بكاء أمها وشقيقتها، وخوار أبيها بعد تهالكه على المقعد.

عندما هدأ قليلًا، نهض واقفًا، جذبها من ذراعها ليوقفها، رفعت عينيها إليه فرأت كتفيه متهدلتين، شعرت بأنه شاخ عمرًا فوق عمره. عيناه تختفيان تحت ثنيات الجفنين، وجنتاه ممصوصتان وكأنه يشارف الموت. اعترتها شفقة غريبة، شعرت بدموع تأبى النزول من عينيها، وبأنفها يحتقن من شدة الحزن. جرها من ذراعها إلى باب غرفتها، دفعها إليها وأغلق بابها عليها.

لمست وجهها فهالها الألم الشديد، أدركت أن عينها اليسرى نصف مغلقة، وأن شفتيها منتفختان تمامًا. لم يكن للغرفة ترباسٌ داخليٌّ، نزعه جدها قديمًا مكتفيًا بكالون يملك أبوها مفتاحه اليوم، حاولت دفع الفراش ووضعه خلف الباب لتمنع أباها من الدخول في أيّ وقت. أو حتى لتمنع مفاجأة دخوله فجأة، فتستعد خلال لحظات زحزحته للباب والسرير من خلفه، لأيّ شيء سيفعله فيها. انتهت من دفع السرير وظلت متجمدة بجواره لدقائق أو لساعات لا تعرف، لكن الأصوات خفتت فجأة وحل الصمت على البيت. سمعت أذان الظهر في المسجد المجاور، فانتبهت للوقت. رأسها ثقيل وعيناها تنغلقان، سحبت الوسادة وانزلقت أسفل السرير كما كانت تفعل في طفولتها، ظهرها ملتصق بالبلاط البارد، ورائحة التراب تفعم أنفها. لكنها شعرت براحة خفية وسكون يحيط بها. في هذه العتمة الأشبه بقبر، تمكنت أخيرًا من النوم.

أبو قردان النائم بين أغصان الشجر

من أوراق كاميليا عاطف

يقع بيت زوجي على مقربة من ترعة القاصد، شقة صغيرة فرشها بمساعدة أبي لإسراع الزواج. أحب التمشية كل ليلة في طريق عودتي على الكوبري الذي يفصل بين الضفتين. الجو ساكن وثمة رائحة كريهة تنبعث في هذا الوقت بالذات من الزراعات القريبة أعجز عن تبينها، لكني اعتدتها لدرجة لا تسبب لي أيّ إزعاج، يحدث في بعض الأيام أن لا تهب عليَّ، فأشعر بالافتقاد. التعوّد على أيّ شيء يجعله حميميًّا لدرجة لا تصدق، لا يكتمل مشهدي إلا بهذه الرائحة، أشعر أن هناك شيئًا ناقصًا، فأقف لحظات في مكاني ناظرة إلى الترعة المظلمة حتى تعود.

الليلة توقفت أمام طيور أبي قردان النائمة على أغصان الأشجار العتيقة على ضفة الترعة، في الظلام تبدو الأشجار محملة بثمار بيضاء كروية متجاورة، لكنها الطيور التي لا تملك أعشاشًا سوى الأغصان الثابتة، تنام هذه الطيور واقفة، دافسة أعناقها الطويلة بين أجنحتها، متجاورة بهذا الشكل دون الشعور بالقلق. لا تخشى صائدًا ولا طامعًا.

أبو قردان هو الأخ الأصغر لمالك الحزين، طيور البلشون ذات العنق الطويل المنثني الذي يمنحها هيئة الحزن هذه، يملك مالك الحزين ريشًا ثمينًا يجعله مهددًا بالانقراض، يصطاده الصيادون

لأنه جميل الشكل، لا يتركونه في حاله، رغم أنه لا يريد شيئًا سوى العيش في سلام ولو إلى جانب المستنقعات.

لكن أبا قردان على عكس مالك الحزين بلا قيمة تدعوه للخوف، لا هو يؤكل ولا يملك ريشًا ثمينًا، على العكس، يتركه الفلاحون في أراضيهم ليحميها من الحشرات والعقارب، ويمارس هو مهمته بسعادة، ثم ينام قرير العين.

أحيانًا تكون اللا قيمة ميزة، تضمن الحياة، والنوم، والاستمرارية، اللا طموح مسعى جيد في حد ذاته، توصلت إليه منذ زمن، بالتحديد منذ اليوم الذي قررت فيه الموافقة على الزواج، والتوقف عن أيّ شيء آخر.

توقفت عن التصوير والكتابة، وعن رؤية اسمي مطبوعًا على صفحات المجلة. كانت هذه هي اللحظة الأجمل كل أسبوع، ما زلت أذكر المشوار الطويل الذي أقطعه مشيًا من بيتي إلى محطة السكك الحديد؛ لشراء المجلة كل خميس، وفتحها بسرعة لألقي نظرة على اسمي فقط، لا أعيد قراءة الموضوع، ولا أقرأ شيئًا آخر في الغالب، أنظر إلى اسمي بسعادة لا تنتهي ولا تقل بالاعتياد، وأعود إلى المنزل متباهية وكأن كل هؤلاء السائرين حولي يعرفون أن اسمي اليوم مكتوب في هذه المجلة الشهيرة.

كلما تذكرت فخر أبي بي، وباسمي المطبوع، وبتحقيقي الصغير، شعرت بمدى حزنه عندما اضطر إلى منعي من الكتابة، والعمل والسفر.

إن كنت تعتقد أنني أكره أبي فأنت مخطئ، لم أكرهه ولو للحظة، حتى عندما ظهر من خلف أخي وأنا أخبره بأنني لن أتزوج، استند بيد على عصاته، وبيده الأخرى صفعني صفعات متتالية بلا كلمة. كان أخي يحاول دفعه بعيدًا، بينما ظللت أنا ثابتة لا أقوى على التحرك من

أمامه حتى لا تهزمه ساقه الوحيدة فيسقط. كان هذا هو أول تواصل بيننا منذ شهور، وكنت أريد أن أشعر بملمس يده على وجهي، أما هو فكان يبكي دون أن يشعر. أنت لا تعرف مدى حب أبي لي، لن يمكنك أن تتخيل أبدًا، أن هذه الصفعات في حقيقتها فعل حب، وأن كل هذه القطيعة، كانت بسبب إشفاقه عليَّ.

لم أوافق على الزواج بسبب صفعاته، بل بسبب دموعه فقط، صرخت: «خلاص موافقة.. موافقة»، وهو مستمر في الضرب، وعندما توقف أخيرًا، كانت الدماء تغطي يده ووجهي، نظر إليَّ غير مصدق، تشبث بعكازه أكثر وحجل بساقه ليغادر الغرفة بأسرع ما يمكنه.

بعدما وافقت على الزواج، انتهى العزل الإجباري، صرت قادرة على الخروج والتواصل، كان هناك اتفاق غير مُعلن بالتعامل وكأن شيئًا لم يكن، في حضرة العريس الذي اكتشفت أنه لم يكن سوى مدرس الرياضيات بالمدرسة. كان لا بد أن نظهر في صورة العائلة الطبيعية السعيدة، أجلس معه في حجرة الجلوس التي ترك بابها مفتوحًا لنتحدث، أو ليتحدث هو، كان نحيلًا، يشبه شقيقي بالنظارة الطبية، والشعر الخفيف على مقدمة رأسه، يرتعش جانب فمه الأيسر بحركة لا إرادية كل بضع دقائق، كنت أشغل نفسي بمتابعتها، وحساب الوقت الزمني بين ارتعاشة والتي تليها، هذه الحيلة التي استمرت سنين بعد ذلك؛ للهرب من سماعه أو الحديث معه.

هل تصدق أنني لا أعرفه إلى اليوم، لا أعرف ما الذي يحبه وما الذي يكرهه، لا أعرف ما هو لونه المفضل، أو رائحة عطره، لا أعرف إن كان يحب صدر الدجاجة أو فخذها، إن كان يفضل الشوكولاتة أم الفواكه، لم أهتم ولم أعرف ولا أريد أن أعرف.

أذهب مع زوجة شقيقي لأبتاع حاجيات العروس، وكنت أترك لها مهمة الانتقاء والشراء، أحيانًا كان أبي يصحبنا إلى المحلة الكبرى لشراء ملابس البيت والأقمشة، يأخذ لنا سيارة خصوصية، أجلس وحيدة في الكنبة الخلفية أسند رأسي إلى الزجاج، وأتلذذ بألم الصدمات المتتالية على صدغي مع حركة السيارة على الطريق غير الممهد، لا أحدث أحدًا ولا أعطي رأيي في شيء. نقف بالساعات في المحلات الواسعة العابقة برائحة القماش والتبغ؛ لاختيار الألوان وحساب الأمتار. كان ظهري يؤلمني، وقدماي لا تتوقفان عن الارتعاش، أجلس في كل محل نذهب إليه في ركن منزوٍ، لأفكر فيك.

كنت أشعر بالقلق من كل هذه الطبيعية التي يتعاملون بها جميعًا مع كل ما حدث، بدأت حتى أشك في حدوثه، وفي وجودك أنت نفسك، هل كان هذا حلمًا؟

مشوار واحد أكد لي أن كل شيء كان حقيقيًّا، عندما اصطحبني أبي إلى عيادة صغيرة في المحلة الكبرى، خلال واحد من مشاويرنا الطويلة هناك، كانت عيادة للنساء والولادة، صالة فارغة وصغيرة جدًّا لا تتسع سوى لمكتب ممرضة ومقعدين، لم يتحدث أبي كثيرًا، كانوا ينتظروننا باتفاق مسبق.

أدخلوني إلى غرفة الكشف بلا انتظار. كنت قد فهمت ما سيحدث، لا حاجة للمزيد من الكلام، طوال الساعة التالية توقفت مرة أخرى عن الكلام، استبدلت التفكير فيك بهذه الغرفة الضيقة وبرائحة البنج. أجبر عقلي على العودة إلى غرفتنا الصغيرة، على استعادة رائحتها، على استعادة رائحتك، شكل يديك، نبرة صوتك، تقطيبة جبينك.

كنت أتحدث معك، وأقص عليك تفاصيل ما يحدث لي، وكنتَ ترد عليَّ وتخبرني برأيك، أحيانًا تطلب مني الهرب، فأسألك: إلى أين؟ فلا تجيب. وأحيانًا تسألني لماذا لا أفكر في الانتحار. فأخبرك بأنني غير مضطرة لذلك، موتي قادم لا محالة.

صمم أبي على إقامة حفل كبير في نادي المعلمين، جلست بثوب زفاف أبيض لم أختره، في كوشة مزينة، أتصبب عرقًا فوق المكياج الفاقع الذي وضعوه على وجهي، لم أبتسم سوى لابنة شقيقي الجالسة بجواري، عريسي جالس هو الآخر يبتسم ويرتعش بجانب فمه، الزحام الشديد أمامي والموسيقى الصاخبة يشعرانني بالدوار. كان أبي يبتسم ويلف على المدعوين، ويبدو وكأنه تخلص من حمل ثقيل، يسير بعصاه في خفة لم أره عليها منذ زمن طويل.

هل تخيلتني وأنا عروس؟ أشاهد تسجيل الفيديو لزفافي هذا الآن وأنا أكتب إليك، بعدما حوله زوجي من شريط إلى «سي دي» يمكن نقله على جهاز الكمبيوتر، أراقب تحولي الكبير من هذه الفتاة الحزينة في الكوشة، إلى السيدة الحزينة في المنزل، أحب مراقبة تغيرات الزمن الظاهرة، بالمقارنة مع الصور وتسجيلات الفيديو التي تمكنت من حبس اللحظات الماضية، وأشعر بالعجز لأنني لم أفعل المثل.

اكتشفت اليوم أنني لم أعد مثل مالك الحزين الذي يسعى الصيادون خلف ريشه الجميل، أنا اليوم أقرب لأبي قردان النائم على غصون الأشجار متكورًا دون أن يأبه به أحد، ربما كان عليَّ التوقف أخيرًا عن التشبث بغصن الشجرة.

٧

حبست كاميليا في غرفتها، فاتتها امتحانات الثانوية العامة، لكنها لم تعبأ كثيرًا بذلك. كانت قد فقدت رغبتها في أيّ شيء، لم تعد قادرة سوى على الرقاد على ظهرها تنظر إلى السقف المظلم في شرود، رأسها خاوٍ تمامًا، حتى التفكير لم تعد قادرة عليه.

أقسمت لوالديها إن شيئًا لم يحدث وإنها مظلومة، إنها فقط رغبت في التمشية قليلًا بعد المدرسة، أخذتها قدماها بعيدًا دون أن تدري، كانت تسير في الشمس فشعرت بإعياء وفقدت الوعي، وأفاقت في مستشفى بعيد على أطراف المدينة حملها إليه الناس في الشارع، وأنها قضت الليلة في طوارئ المستشفى لأنها كانت مشتتة لا تذكر شيئًا حتى سمح لها الأطباء بالخروج.

لم يصدقها أبوها، لكنه تظاهر بذلك، لم يحاول معرفة مكان ولا اسم المستشفى، ولا ذهب بنفسه للبحث وسؤال الأطباء، كان يحاول إقناع نفسه بأن هذه هي الحقيقة، وأن ابنته لم تهرب كما فعلت شقيقته، سمح لنفسه بتجاوز الأمر، بالذات بعدما انطفأت نظرة التحدي في عيني ابنته، كانت ترقد طوال اليوم على سريرها، تتناول طعامها وتذهب إلى الحمام ثم تعود وحدها إلى الغرفة، شعر بأنها تحولت إلى شبح شاحب، ولم يعد قادرًا هو نفسه على تحمل قسوته.

سمح لها أخيرًا بالتحرك خارج حدود الغرفة، كانت تنفذ الأوامر بلا مناقشة، تساعد أمها في المطبخ، تنظف البيت، تُناوِل أباها ما

يحتاجه، لم يتبادل معها الكثير من الحديث؛ كلمتين أو أكثر يطلب بهما كوبًا من الشاي أو شربة ماء، ومع بداية الدراسة، قرر أن يحولها إلى نظام المنازل. لكن أمها تصدت له، أخبرته بأن أحوال الفتاة تحسنت، وأنها تعلمت مما حدث بكل تأكيد. أخبرته بأن فرص النجاح وتحقيق مجموع جيد في نظام المنازل ليست مرتفعة، ستمتحن في لجان خاصة مشددة، كانت تعرف أن حساسية ابنتها ستوقف عقلها عن التفكير، وأنها لن تتمكن أبدًا من التقدم خطوة.

حولت كاميليا أوراقها إلى القسم العلمي كما رغبت دون اعتراض من والديها، وبدأت في الذهاب إلى الدروس الخصوصية من جديد قبل الدراسة، أعاد التزامها بالمواعيد وعودتها فورًا إلى المنزل مع انتهاء الدرس بعض الثقة إلى قلب أبيها، لكنه لم يتوقف عن الشعور بالذنب مما حدث. كان يشعر أنه السبب في انفلاتها، كما كان السبب في رحيل عمتها ذات يوم.

يتمنى لو احتضنها بقوة وأخبرها بأنه يحبها كثيرًا، لكن بدلًا من ذلك كان يستمر في تعنيفها والسخرية منها، يسبها بأقذع الألفاظ، ويتهمها بالفجور إن فارت منها القهوة على النار، أو أوقعت مشبك غسيل في الشارع بينما تنشر الثياب.

كان يقتحم غرفتها في أيّ وقت، وهي نائمة، وهي تدرس، وهي تغيِّر ملابسها، وكانت تشعر بأنها لا شيء، بلا وجود ولا كينونة، لا جدران تحميها، لا مكان خاصًّا يمكنها أن تسترخي فيه.

ذات يوم، عاد إلى المنزل مبكرًا، كانت أمها تقف في المطبخ كالعادة تعد طعام الغداء، وريم جالسة في الصالة تشاهد فيلمًا قديمًا،

سألها عن شقيقتها فأخبرته بأنها لم تغادر الغرفة منذ الصباح، قرر اقتحام غرفتها في واحدة من غاراته المفاجئة، فوجدها ممسكة بالأوراق الصفراء القديمة، نزعها من يدها قبل أن تستوعب ما يحدث، وتعرّف في اللحظة نفسها على خط شقيقته. بدّل نظرته بين الأوراق ووجه ابنته في فزع، وكاميليا تنظر له بخوف، والغرفة التي شهدت الكثير من المآسي تضيق من حوله. ظل متجمدًا لدقيقة، ثم هرع إلى غرفته دون كلام.

كانت المذكرات أكبر من تحمله، شعر بأنه غير قادر على التنفس، بدا وكأن روحه خرجت من جسمه، رأى نفسه من الخارج، لا شيء، مجرد نكرة بلا ملامح. اكتشف والدموع تغرق وجهه أنه لم يعرف شقيقته قبل اليوم، وأنه في الحقيقة لم يعرف نفسه أيضًا.

في المساء، طرق باب غرفة ابنته قبل الدخول، كانت منكمشة في سريرها تتوقع العقاب الذي سيوقعه بها، لكنه اتجه إليها ببطء، جلس على حافة السرير، وقرر أن يتحدث معها لأول مرة عن كل شيء.

محمد ناصر عاطف

ماتت أمي وأنا في عمر عشر سنوات، منذ أن ولدت كاميليا وهي بحالة سيئة فعلًا، ست سنوات كاملة وهي تعاني وأبي لا يهتم، لم يذهب بها حتى إلى طبيب. تداوي نفسها بالأعشاب والمسكنات، تربط رأسها بمنديل بعد أن تغرقها بزيت ذي رائحة نفاذة، ما زلت أذكر رائحته، وأعرف أنها في الحقيقة رائحة الموت.

أعتقد أنه لم يكن يحبها، لم يحب أحدًا غير نفسه، يقف أمام المرآة بالساعات يعدل ربطة العنق ويصفف شاربه وشعره، يلمع المقبض النحاسي لعصاه، ويرتدي ساقه الخشبية، بينما تدور أمي في البيت، تحمل الطفلة، وتخدمه وتخدمني.

كنت أحاول مساعدتها بكل ما أملك، الدفاع عنها أمام صيحاته المفاجئة العالية والتي يطلقها علينا بلا سبب. ما زلت أسمع صوته في أذنيَّ، يتردد في المساء وفي الشارع وفي كل وقت، حادًّا وساخرًا وقاسيًا. تبتسم أمي وكأنها تعتقد بأنه يمازحها، رغم أني أعلم بأنه لا يفعل وبأنها تعرف ذلك.

يوم موتها، كنا وحدنا في البيت، وقفت أمام الباب أنتظر عودته من العمل، عندما فتح الباب بمفتاحه، هرعت نحوه، أخبرته أن أمي ليست على ما يرام، لكنه لم يهتم، جلس ليستريح أولًا، ثم نهض لوضع مشترياته من السوق في المطبخ.

سمعنا صوت سقوط أمي وهي تنهض من فراشها، يبدو أنها كانت

تنوي المجيء لمساعدته فلم تستطع المشي. وقتها هرع أبي نحوها، وقفت أنا في الصالة أرتعش، وكاميليا تبكي إلى جواري.

اتصل أبي بالإسعاف، ثم أجرى اتصالات عدة بأصدقاء له في قسم الشرطة، يبدو أنهم أجروا بدورهم اتصالاتهم؛ لأني سمعت صوت عربة الإسعاف يتعالى قادمًا باتجاه المنزل. نظرت من الشرفة، كانت السيارة البيضاء تقف أمام العمارة، وضوؤها يسطع في عيني رغم ضوء النهار، تجمع الجيران بالأسفل متسائلين عن المسكين الذي ستحمله السيارة بعد حين، صعد رجلان بالمحفة ليستقبلهما أبي على الباب، وضعاها برفق، وحملاها من أمامي، كان مغشيًّا عليها، عندما مروا من جانبي، رأيت شعرها الأسود منسدلًا على جبينها، ورغاويَ خضراء اللون على جانب فمها. كانت هذه آخر مرة أراها فيها.

الجلبة شديدة على السلم، والجيران يعرضون مساعدتهم على أبي الذي شكرهم بعصبية، تابعتهم من الشرفة وهم يودعون أمي في العربة، ساعده البعض على الصعود إلى العربة، ثم أغلقوا أبوابها خلفه.

حلَّ الصمت على المكان. لم أعرف ما الذي يجب عليَّ فعله الآن، تمسكت كاميليا بكم قميصي وبكت، جلبت لها بعض الأوراق والألوان، تركتها على الأرض ترسم، وجلست على أرض الشرفة أنتظرهما.

عندما عاد أبي في المساء، أخبرني أن أمي بالفعل مريضة جدًّا، وأنها ستبقى في المستشفى لبعض لوقت. لم ينم ليلتها في سريره، ظلَّ على كنبة الصالون مستيقظًا. لم أنم أيضًا، تسللت من الشباك إلى الشرفة الخلفية، رقدت على ظهري أراقب النجوم حتى نمت.

استيقظت على حرارة الشمس، كنت منعزلًا تمامًا عن البيت، قفزت إلى الغرفة مرة أخرى فسمعت أصواتًا غير معتادة في الصالة، خرجت أقدم قدمًا وأؤخر أخرى، فوجدت أشخاصًا لا أعرفهم يتحركون في كل مكان، وكاميليا تقف كالتائهة بينهم. نساء من بلدة أمي متشحات بالسواد، يزحن السجاجيد ويرصصن المقاعد. وأبي جالسًا ساندًا بيديه على مقبض عصاه، يراقب ما يحدث دون كلمة.

فهمت أن أمي ماتت، لم يكلف خاطره حتى بالتحدث معي، ناداني وطلب مني اصطحاب كاميليا إلى جارتنا أم نادية في العمارة المقابلة لتلعب مع ابنتها، ثم العودة بسرعة. عندما نزلنا إلى الشارع وجدت الصوان قد نُصب، لم أتمكن من البكاء، تصاعدت الدماء إلى وجهي وأذني، ولم أنطق، صعدت بصمت إلى العمارة المقابلة تنتظرني أم نادية وابنتها على الباب، ربتت على رأسي وضمت كاميليا إليها.

نظرت إلى كاميليا قبل أن أتركها، كانت صامتة تمامًا، بجلبابها الأصفر القصير ووجهها الدائري وشعرها الناعم، تنظر لي وتزم شفتيها، وتمنيت لو أظل معها وألا أتركها وحدها في هذا البيت.

لكني عدت إلى أبي من جديد، كان واقفًا يعطي أوامره وكأنه يستعد لحدث سعيد، يرسل فتاتين لشراء اللحم، ويشرف على صنع الطعام للمعزين القادمين من سفر. يرد على الهاتف أو ينظر من الشرفة إلى الصوان.

وقفت بجواره دون أن يشعر بوجودي، ثم انتبه لي فشخط بصوته الحاد كعادته:

ـ لماذا تنظر لي هكذا؟ اذهب وافعل شيئًا.

جريت من أمامه، كانت غرفة أمي فارغة، دخلت وأغلقت الباب خلفي، الظلام أراحني قليلًا، وشعرت أن الأصوات جميعها تختفي. فتحت دولابها، وأمسكت بكم الجلباب، كانت رائحتها لا تزال فيه، أخذت نفسًا عميقًا منه، ثم سحبته من الرف، وضعته أسفل التي شيرت وعدت إلى غرفتي قبل أن يراني أحد. عرفت أنهم سيتخلصون من ملابسها كلها، وأن هؤلاء النسوة سيستولين على كل شيء قبل الرحيل، لن يمنعهم أبي، بل إنه سيرحب بذلك، دفنت جلبابها في أعماق خزانتي وجلست على الأرض أبكي أخيرًا.

سوَّى أبي معاشه مبكرًا ليتفرغ لنا بعد وفاة أمي، يقضي يومه في السوق أسفل المنزل، أراه كل يوم وأنا عائد من المدرسة، يمازح البائعات ويغازلهن، أتظاهر بعدم رؤيته وأهرع إلى البوابة، يناديني بصرامة، ويشير نحوي بعصاه، أتجه إليه برأس منخفض، فيحملني أكياس مشترياته لأصعد بها ويكمل هو جلساته.

لم أكن أتحمله ولا أتحمل سلوكياته، أسمع بأذني سخرية الجميع منه، الرجل الكبير ذو الساق الخشبية، المحارب العظيم الذي يغازل الفتيات البائعات الصغيرات، ويشتري منهن بضعف الثمن. يسخر مني الصبية من أولاد الجيران فلا أرد، تحمّر أذناي وألومه في سري، هو السبب في عزلتي وأنني لم أمتلك أصدقاءَ حقيقيين طوال عمري.

كنت منعزلًا في المدرسة والشارع، أعود إلى البيت لأنهي واجباتي ثم أقضي الوقت المتبقي في القراءة في الشرفة الصغيرة. لا أتبادل الحديث مع أبي سوى على الغداء، كلمتين حول المدرسة والمذاكرة، في الإجازة الصيفية يحل الصمت تمامًا، نشاهد التلفزيون أو تتولى كاميليا الحديث، كان يدللها جدًّا، لا يرفض لها طلبًا،

يصحبها بنفسه إلى المدرسة ثم يعود ليأخذها، يشتري لها الحلوى وكتب التلوين. بينما أضطر أنا إلى الوقوف نصف ساعة أمامه في كل مرة أطلب منه نقودًا لشراء كتاب جديد.

يصمم على إعطائي محاضرة عن أهمية التوفير في كل مرة، الشيء الوحيد الذي تعلمته من محاضراته الطويلة أن أتخلص من الشعور بالخجل عند طلب المال، تبلدت مشاعري، وصرت أقف بالدقائق منتظرًا إحسانه، يناولني إياه فأسرع مبتعدًا.

كاميليا صديقتي الوحيدة، أمرّ كل يوم لاصطحابها من مدرستها، نتمشى قليلًا بجوار سور مستشفى الحميات، نقلب في فرشات الكتب والمجلات القديمة، أشتري كتابًا أو رواية جيب، وتشتري هي مجلة النجوم أو الشباب، كانت تجمع صور وملصقات الفنانين في كشكول خاص، وتكتب كلمات الأغاني بجوار الصور، أضحك وأنا أرى حماسها بإيجاد نسخة قديمة من المجلة لم تقرأها من قبل. نعود إلى المنزل، نجلس على الطبلية الدائرية أمام الشرفة، نحل الواجب معًا، أساعدها في حل المسائل الرياضية التي تكرهها، وأسمع لها أبيات الشعر ومعاني الكلمات، ثم نجلس في الشرفة، نراقب السائرين، ونمزح بشأن كل شيء. كانت قوية الملاحظة سريعة البديهة، تعرف كل شخص بالاسم، وتعرف روتين الجيران ربما أكثر منهم، تحكي لي عن نادية جارتنا وزميلتها في المدرسة التي تجلس في الشرفة المقابلة طوال الوقت، تقول بأن نادية تكرهها وتوقع بينها وبين البنات في المدرسة. تعتقد أنها سرقت كشكول الصور الذي استغرقت شهورًا في إعداده ولصق صور نجومها المفضلين فيه بترتيب منظم، كانت فخورة جدًّا به، لكنه اختفى ذات يوم في المدرسة، هي متأكدة من أن نادية سرقته.

تحكي لي قصصًا طويلة عن كيف تصرفت معها وكيف ذهبت إليها لتطالبها بالتوقف عن هذه الأفعال، كنت أستمع إليها بنصف أذن، وأطلب منها أن تتجاهل هذه الأمور التافهة وتنتبه لدراستها لتتمكن من الالتحاق بالثانوية العامة بلا مشاكل.

عاشت مدللة مني ومن أبي، طوال عمرها مرتاحة البال، عيناها ناعستان وكأن لا شيء يؤرقها سوى جمع صور الفنانين وتسجيل الأغاني من الراديو على شرائط الكاسيت ثم الاستماع إليها طوال النهار. ملامحها مرتاحة، جسمها رخو، طري، تسير بتمهل، وتتحرك بتمهل، حتى صوتها ناعس، تبتسم دائمًا، لم ترَ الدنيا ولم تحاربها، لم تعرف الموت حتى برحيل أمها، وفكرت كيف ستعيش هذه الفتاة حياتها، وكيف ستصنع لنفسها حياة جديدة؟

التحقت بكلية آداب القاهرة، رفض أبي فكرة المدينة الجامعية أو السكن المشترك، وصمم على ضرورة السفر والعودة في نفس اليوم، استخرج لي اشتراكًا للطلبة، وحرص على حجز فرق المقعد بنفسه أسبوعًا بأسبوع، ذهابًا وإيابًا.

لم أتمكن من المعارضة، كنت متلهفًا للسفر، واعتقدت أن بإمكاني تغيير رأيه في السنوات التالية. شعرت بحماس كبير ولم أرد إفساده بتعنتات أبي، لم يسبق لي السفر وحدي من قبل، ولم أزر القاهرة إلا في زيارات خاطفة معه إلى جمعية المحاربين القدامى لحصد بعض من مستحقاته.

منذ أن هبطت على رصيف محطة رمسيس، وأنا أشعر برائحة مختلفة للهواء، بدت المدينة أكثر اتساعًا، وكأن السماء أكثر علوًّا.

الميدان مزدحم لكنه متسع بشكل لم يسبق لي أن ألاحظه، لم أعرف إلى أين أتجه، ثم استجمعت شجاعتي وسألت عن محطة الأتوبيس، ووقفت أنتظره حتى وصل، لم يكن مزدحمًا لحسن حظي، قضيت المسافة الطويلة أنظر خارج زجاج النافذة المجاورة، أتأمل الشوارع الواسعة والناس السائرين وكأن كلًّا منهم في غلالة شفافة تفصله عن العالم من حوله.

عندما وصلت أخيرًا إلى جامعة القاهرة، صدمتني ضخامتها، شعرت بالتوهان وعدم الانتماء منذ اللحظة الأولى، لم أتمكن من الوصول إلى كليتي إلا بمشقة، لم يرغب أحد في مساعدتي، ولم أتمكن من معرفة أين عليَّ الذهاب إلا بعد ساعات.

نقلت جدول محاضراتي، ثم جلست منزويًا على درجة سلم باردة. تبدو الجامعة كفناء مدرسة كبير، نفس الهواء المترب ونفس الصخب، لكنه أكبر وأضخم، ربما بإضافة بقع خضراء منسقة ومبانٍ حديثة، وفتية وفتيات يقفون معًا بملابس ملونة زاعقة. شعرت بلذة تدخين سيجارة داخل حرم دراسي، لكني لم أحب البقاء كثيرًا، وقضيت بقية الأسبوع غير قادر على النهوض من السرير أو مغادرة البيت.

في الأسبوع التالي وبعد عراك طويل مع أبي، ركبت قطار السادسة صباحًا في طريقي إلى الجامعة، كنت أفكر طيلة الطريق في نقل أوراقي إلى أيّ كلية في طنطا، تبدو القاهرة أكبر من قدرتي، ليست كما تظهر في الروايات التي أحب، ربما نفس الشوارع والأجواء، لكنها بلا حرارة، يسير الناس وهم ينظرون إلى أنفسهم فقط، والهواء يبدو راكدًا، هناك سكون غريب رغم الصخب. وشعرت بالحزن يتخللني.

عند وصولي إلى محطة رمسيس، قررت عدم ركوب الأوتوبيس، قررت المشي في الشوارع واكتشاف المنطقة، قادتني قدماي إلى ميدان التحرير ووسط البلد، وبدأت في استعادة الشعور بالمكان الذي تعرفت إليه في الروايات التي أحبها. تأملت المباني القديمة وواجهات المحلات، فرشات الصحف على الأرصفة، واللافتات المكتوبة بخطوط مزخرفة. وشعرت بالسعادة.

عند انتصاف النهار، وصلت إلى مقهى الحرية. صدمني الاتساع الكبير لمقهى شعبي، وتقديمه للبيرة بجانب المشروبات المعتادة. أدرت نظري في المكان، كان متسعًا وقديمًا، منحني شعورًا بالراحة والألفة وكأنني أرتاده طوال حياتي.

من يومها وأنا أعلم ما أريده، كل يوم أذهب إلى الكلية على أمل الانتهاء سريعًا ثم الانطلاق إلى شوارع وسط المدينة. بت زبونًا دائمًا في مقهى الحرية وستراند، ومقاهي وسط البلد، في حين ظللت وحيدًا كما كنت طوال عمري داخل الجامعة، تمكنت من تكوين أصدقاء وصديقات في وسط البلد، تعودت على العثور على شخص مألوف أو أكثر عند توجهي إلى أيّ مقهى، نجلس معًا ندخن ونشرب، كنت أتحدث بانطلاق وحرية لم أعهدهما في نفسي من قبل.

كنت أتأخر عن ميعاد آخر قطار إلى طنطا، أضيّع التذاكر التي حجزها لي أبي وأعود في ميكروباص أو سيارة بيجو، أتحمل التقريع على أمل العودة إلى مكاني المفضل في اليوم التالي، وأجيب عن أسئلة أبي بتأخر مواعيد المحاضرات وازدحام الطرق.

على الرغم من تواجدي الدائم فإنني كنت طيفًا عابرًا في نفس الوقت، أغادر قبل أن تبدأ السهرة وتزداد حماسة الكلام، أطلقوا عليَّ

اسم «ناصر قطار» لتعللي الدائم بمواعيد القطارات، واضطراري للمغادرة فجأة.

رفضت عروضًا كثيرة للتمرن والعمل في جرائد أو مجلات. ظللت نادمًا فترة طويلة بعد ذلك، لم أفكر في أيّ طريقة تجعلني قادرًا على المشاركة، اكتفيت بزيارة أصدقائي الصحفيين والرسامين في مقرات الجرائد، زرت الأهالي وروز اليوسف والشباب والأهرام، وقرأت عشرات الكتب الصادرة من سلسلة الشباب في قصور الثقافة.

شعرت أنني أكثر نضجًا، صرت أتحدث مثل الجميع، أقحم كلمات كبيرة في كل كلامي. أصبحت شخصًا آخر، وفخرت بتغيير هذا، شعرت بأن لي كيانًا، وأنني قادر على فعل أيّ شيء. لست مجرد تابع أو خاضع، أنا أملك أهمية ما حتى ولو لم أتبينها بوضوح.

كانت السنون تمر، كنت في سنة تخرجي الأخيرة، بينما تستعد كاميليا لامتحانات الثانوية العامة، كنت أحدثها عن الأجواء التي أحب فتتسع عيناها انبهارًا، تلح عليَّ في اصطحابها لكن أبي لم يوافق ولو مرة. تقرأ معي المجلات والكتب، وتناقشني فيما يستوقفها.

أدركت أنها كبرت فجأة، تحولت من الفتاة الناعسة، إلى شابة جميلة، عيناها ذكيتان ونشطتان، اجتماعية جدًّا، نصف بنات المدينة صديقاتها، كانت تسألني إن كانت لي مغامرات عاطفية في القاهرة وأجيبها بالنفي، تندهش ولا تصدق، وأندهش أنا أيضًا، وبررت لنفسي الوضع بأنني نصف متواجد، غير قادر على التوازن وإقامة علاقة وطيدة مع أحد.

بالذات مع الفتيات اللاتي أقابلهن على المقاهي الثقافية وشوارع

وسط البلد، كن أكبر من قدرتي على التعامل، يحدقن في وجهي بأعين واسعة، بعضهن يدخن السجائر، يتحدثن بصوت مرتفع ويتشاكسن مع الرجال والصحفيين الذين كنت أعجز عن رفع عيني في أعينهم.

يعملن في الصحافة، يتدربن في الجرائد أو منتميات بالفعل إلى النقابة، بعضهن طالبات في كليات الإعلام والسياسة والاقتصاد، تعجبت من قدرتهن على البقاء طوال النهار في الشارع، أتركهن وأهرع إلى المحطة، بينما يستعددن لمواصلة سهرتهن في بيت أحدهم في وسط البلد، أو حضور أمسية شعرية في مركز الهناجر.

كنت أملك أحلامًا كثيرة، وأشعر أنني عاجز عن معرفة كيف أبدأ بتحقيقها. في الأيام التي أتمكن فيها من إقناع أبي بضرورة تأخري، كنت أذهب لحضور أمسيات شعرية وندوات ثقافية معهم، أجلس بين الصفوف وأشعر أنني أنتمي لهذا العالم، الجو الخانق ورائحة السجائر كانا يضفيان سحرًا وأهمية على الحدث، وعرفت أنني أرغب في أن أكون كاتبًا.

شرعت في الكتابة كما كنت أتمنى، أعجبتني الكتابة المسرحية، ووجدتها الطريقة المثالية للتعبير عن الأفكار التي تتردد داخل عقلي، والحوار الدائم مع نفسي طوال فترات وحدتي وانعزالي.

مع انتهاء السنة النهائية في الكلية، كنت قد أتممت كتابة المسرحية، لم أطلع عليها أحدًا سوى كاميليا، قرأتها في يومين، دخلت غرفتي وابتسمت، وضعت الأوراق المكتوبة بخط يدي على المائدة.

ـ لم أكن أعرف أنك كاتب جيد إلى هذا الحد.

تعهدت كاميليا بأمر طباعتها على الآلة الكاتبة في مكتب مجاور،

كانت تذهب كل يوم لتتابع إلى أين وصلت الفتاة الطابعة، تتعجلها وتقف بجوارها لتعمل أسرع. كانت متحمسة أكثر مني، إلى أن استلمتها في ليلة امتحاني الأخير في الكلية، حملت الأوراق ذات الكعب البلاستيكي كمذكرات الثانوية العامة في حقيبتي، أذكر أنني أنهيت الامتحان في ساعة واحدة، غادرت اللجنة بعد نصف الوقت، وانطلقت إلى مقر الهيئة العامة للكتاب للتقدم لنشرها.

تناولها مني موظف هناك بلا اهتمام، طلب مني ملء أوراق والإمضاء على استمارة، سلمني إيصالًا ورقمًا وأطلعني على لائحة النشر، لم أدرِ ما الذي عليَّ فعله بعد ذلك، عدت إلى البيت وانتظرت أيامًا طويلة، دون أن يحدث شيء، دون أن يهاتفني أحد أو أتلقى ردًّا.

شعرت بخيبة أمل كبيرة، زادتها ترتيبات أبي لي باستلام العمل في التربية والتعليم، والاستقرار وإنشاء أسرة، كان يتحدث وكأنه لا يرى سوى مسار حياته فقط، وهالتني البساطة الشديدة التي يتحدث بها عن الحياة والخيارات، هالني أكثر ظهور علامات الزمن على وجهه، وارتجافة شفته السفلى عند الكلام.

سحبت نفسًا عميقًا، وجلست أمامه لأخبره بما أفكر فيه، وبالمسرحية التي كتبتها، وأحلامي بالانتقال إلى القاهرة والعمل هناك.

كان رد فعله متوقعًا، لكنني مع ذلك شعرت بإحباط كبير وهو يسألني عن جدوى كل ذلك، وهو يخبرني بصوته الحاد ما أخبرني به عشرات المرات قبل ذلك، أن لا أحد يتكسب من الكتابة، وأن عليَّ استلام وظيفتي الحقيقية التي ستسند ظهري وتطمئنه على مستقبلي، ثم أفعل ما أشاء بعد ذلك.

لم أتمكن من الرد، لم أعرف ما يجب عليَّ قوله، أكثر ما ضايقني اكتشافي لجبني، وأنني لم أكن متمسكًا بأحلامي إلى هذه الدرجة. جزء مني كان يوافقه على ما يقول، كنت مهتزًّا، أجبن من أن أبدأ حياة جديدة بعيدة، وأضحي بأخرى مستقرة هنا في كنفه كما عشت دائمًا، اكتشفت أنني منافق وأحمق، وأنني لم أكن شيئًا مما تخيلته. شعرت بالرغبة في مغادرة المنزل، كان الوقت متأخرًا على السفر، فتمشيت قليلًا في شوارع المدينة، عندما عدت، قابلتني كاميليا بلهفة.

ـ أين كنت؟ شخص ما اتصل بك.. يقولون إن مسرحيتك سوف تنشر.

ـ هل تمزحين؟

ـ لا والله.

اتجهت إلى الهاتف وكأنني سأجد أحدًا بانتظاري داخله، ثم عدت إليها من جديد، سألتها عن تفاصيل أكثر لكنها لم تعرف شيئًا، سهرت طوال الليل أدخن في الشرفة وأنتظر المكالمة القادمة، غرقت في النوم في الصباح، واستيقظت على كاميليا تهزني بعنف.

ـ قم، الرجل على الهاتف ويريدك.

هببت من مكاني، نظرت حولي واكتشفت أنني نمت على كنبة الصالة، نزلت على ركبتي إلى الأرض وزحفت نحو الهاتف، أمسكت السماعة بمعجزة ما.

كان شخصًا لا أعرفه يبشرني بالنشر، ويطلب مني الحضور لتوقيع بعض الأوراق، لا أعرف بما أجبته، كنت أشكره وأفكر في رد فعل أبي الذي لم يتوقف عن إحباطي، وأنتظر اللحظة التي أرى فيها

المسرحية منشورة، ربما تمثل على المسرح، وربما تعرض في التلفزيون، وربما لا أحتاج فعلًا للوظيفة.

نشرت المسرحية في بداية عام ١٩٩٢، توقعت رد فعل كبيرًا، واحتفاءً شديدًا، ولم أجد شيئًا طبعًا، كان كل كلام أبي صحيحًا. وزعت النسخ التي استلمتها على أصدقائي في وسط البلد ثم لم أسمع منهم شيئًا بعد ذلك، كانت الأيام تمر ومرات سفري إلى القاهرة تتباعد، وفجأة أدركت أنني لم أفعل شيئًا، وأنني لم أكن شيئًا، وأن هذا الكتاب الصغير لم يمنحني ما أتمناه.

هل قرأتِها يا كاميليا؟ يمكنك إيجاد نسخة متبقية في المكتبة في غرفة الصالون، اسمها «سوق الكلمات»، هل تعلمين أنها فازت بجائزة.. جائزة محمد تيمور للإبداع المسرحي، المركز الثالث مناصفة؟

عندما عرفت بفوزي بالجائزة شعرت بالفرح، وظننت أنها فرصة جديدة لينتبه إليَّ الناس، على الأقل الوسط الثقافي، لكن هذا لم يحدث أيضًا، نشرت مجلة «الفيصل» الخبر في سطرين، إلى جانب بعض النشرات الثقافية الأخرى ثم انتهى الموضوع تمامًا.

تسلمت الجائزة في احتفال بسيط في مركز الهناجر، كانت المرة الأولى التي يقبل فيها أبي أن تسافر عمتك معي. لكنه لم يأتِ.

بدت كاميليا منبهرة بالأجواء، عرفتها على بعض أصدقائي، جلست بجوارهم بينما صعدت أنا لتسلم جائزتي، بعد الاحتفال كانت قد تعرفت على نصف الموجودين، بينما وقفت أنا صامتًا في جنب، وبدت وكأنها هي الفائزة وليس أنا، أتابعها وهي تمازح هذا وتتحدث مع ذاك، ولوهلة بدت نسخة من الفتيات اللاتي تعودت على رؤيتهن في المقاهي، بعينين متسعتين، وصوت مرتفع.

اعتذرت من محدثي وتوجهت إلى شقيقتي، سحبتها من يدها وودعت الجميع سريعًا، اتجهنا بلا كلام إلى الموقف. خلال عودتنا، كنت أسند رأسي على زجاج نافذة الميكروباص، أتأمل الظلام الذي يحيط بي من كل جانب وشعرت كأنني أجتاز نفقًا ضيقًا، أدركت وقتها أن هذا النفق لا رجعة منه.

أما كاميليا فأنهت الثانوية العامة بمجموع كبير، تمنت دخول كلية الفنون التطبيقية، لكن أبي رفض بشدة، فكرة السفر إلى القاهرة أرعبته، وكان هذا هو أول صدام لها مع الواقع.

انهارت كاميليا، وبذلت كل ما بإمكانها لإقناعه دون جدوى، أخبرته بأنها ستسافر وتعود في نفس اليوم، وأن بإمكانه المجيء معها للتأكد من أن الطريق سهل والمواصلات متوفرة، لكنه لم يقبل قطُّ، بل ملأ استمارة تنسيقها بنفسه، وكتب في الرغبة الأولى كلية التربية جامعة طنطا دون أن يهتم ببكائها وحبسها لنفسها في غرفتها.

حاولت التخفيف عنها بلا جدوى، أخبرتها أن كل الكليات سواء، وأن بإمكانها الاستمرار فيما تحب من أي مكان، أخبرتها أن الكليات مليئة بالنشاطات الطلابية، وأنها قادرة على الاشتراك في الأسر الثقافية، والكتابة والرسم والتصوير وكل شيء، كانت تسمعني وتبكي بصمت، ورفضت الذهاب إلى الكلية لشهر كامل.

لم تلن رأس أبي ولم يغيّر موقفه، توقفت هي عن البكاء لكنها أيضًا توقفت عن الحديث، أصحبها كل يوم لنتمشى قليلًا في شوارع المدينة، أحدثها عن مئات الفنانين الذين لم يلتحقوا بكليات الفنون، اشتريت لها الكثير من الكتب والمجلات، وصحبتها بنفسي إلى كليتها

لتشاهدها من الخارج. أخيرًا اقتنعت على الأقل بعدم جدوى الاستمرار في حالة الإضراب عن الحياة والدراسة، وانتظمت في كليتها.

لم تمرّ سوى أسابيع حتى استعادت نشاطها وحماسها، فعلت كما اقترحت عليها، اشتركت في العديد من النشاطات، وباتت عضوًا ناشطًا في اتحاد الطلبة، أما أنا فتسلمت العمل في مدرسة صغيرة في قرية قريبة بعد جهد ووساطة أبي.

توقفت الحياة عن السريان بالنسبة لي، عدت لقضاء الوقت في الصمت والقراءة. حاولت كاميليا لفت انتباهي إلى نادية صديقتها، وجارتنا متوسطة الجمال والذكاء، دهشت من اختيارها، وسألتها: ألم تكن تكرهها قديمًا، وتعتقد أنها تغار منها؟ أخبرتني أن هذه تفاهات فتيات صغيرات، وأنها نسيت كل شيء، وأن نادية في الحقيقة فتاة ممتازة وطيبة.

سألتها مازحًا:

ـ ألم تتهميها بسرقة كشكول صورك؟

ـ أما زلت تذكر هذه التفاهات؟ أنت بالفعل أسود القلب.

كانت تتحدث عنها بحماس، وتعدد ميزاتها لي ولأبي، فتاة تقبل العيش في بيت مع حميها وأخت زوجها، بدخل بسيط وعفش قديم، هي أيضًا وافقت على الفور، لم أكن أحمق، كنت ألاحظ نظراتها المتلهفة إليَّ في الشرفة المقابلة، ومحاولاتها المستمرة منذ الصغر للفت انتباهي، استسلمت في النهاية، وعرفت أنني لن أتمكن من الحصول على من هي أفضل.

قرر أبي تجديد غرفة نومه التي أصبحت غرفتي بعد وفاة أمي وعدم قبوله النوم فيها مجددًا، اشترى غرفة كاملة حديثة بمدخراته

المتبقية. كان يبدو سعيدًا، ربما لتبين أنه كان دائمًا على حق، وأنني كنت حالمًا أكثر من اللازم.

أعرف أنك لم تعرفيني كاتبًا، لم تَرَيْني سوى رجل انطوائي لا يتحدث، حشاش كما يقولون وكما تفكرين، هل تعرفين متى بدأت بتدخين الحشيش؟ في نفس اليوم الذي نشرت فيه عمتك مقالها الأول في مجلة «نصف الدنيا»، عادت إلى البيت تحتضن المجلة وكأنها تطير، أرته لي ولأبي، مقالًا مع صورة التقطتها بنفسها لطيور أبي قردان المتكورة على الشجر على ضفة ترعة القاصد، أرسلته بالبريد إلى صحفي كان متواجدًا يوم حفلة تسلمي الجائزة، أعرفه جيدًا وأعرف ما يقال عنه في وسط البلد، كان المشرف على الصفحة الثقافية في هذه المجلة، وتأكدت أنها تتواصل معه، ربما يتصل بها، لعله يراها أيضًا.

تأكدت أنني لم أكن أتخيل نظرات الإعجاب في عينيه ليلتها، كاد يأكلها بعينيه، لاحظت إطالته في مصافحتها، بالتأكيد هذه طريقته في اصطيادها. شعرت بالفزع وكأنني قدتها إلى هلاكها. لم أقرأ المقال حتى، باركت لها وتركتها تريه لأبيها الذي دمعت عيناه سعادة وهو يرى صورتها الصغيرة منشورة بجوار المقال، سعادة لم أرها على وجهه وهو يقرأ كتابًا كاملًا لي.

أخبرت نادية الواقفة في المطبخ بأنني سأغادر المنزل قريبًا، نظرت إلى وجهي وسألتني عما بي، لم أجب لأنني لم أعرف الإجابة. تمشيت كثيرًا في الشوارع المجاورة، وقادتني قدماي إلى دار المعارف في شارع القنطرة، كانت مغلقة، لكني وقفت أمام الفاترينة أتأمل أغلفة الكتب قليلًا وأفكر في حياتي.

وددت العبور إلى شارع البورصة، من ممر ضيق يصل بين الشارعين، تذكرت أن محل صلاح ـ الوحيد الذي ظللت على تواصل معه منذ الثانوية ـ يقع هنا في مكان ما. دقائق ثم لمحته من ظهره ينفض التراب عن فاترينة قصيرة أقرب لبوفيه منزلي خشبي، صفَّ فيها مستلزمات الخياطة والتطريز، بدا أكثر بدانة، والعرق يغمره، السيجارة مدلاة من فمه والتراب يهب من أسفل المنفضة التي يحركها بيده ليلتصق بقميصه.

عندما رآني صاح باسمي بأعلى صوت، احتضنني بالتراب والعرق، وصحبني إلى داخل المحل الضيق، سألني عما أفعله في حياتي، أخبرته أنني تزوجت واستلمت العمل في التدريس، لم أقص له شيئًا عما حدث لي في القاهرة، ولا عن كتابي وأحلامي، علمت أنه لن يستوعب ما أقول، ربما يسخر حتى مني.

كان قد أنهى معهد إعداد الفنيين، تزوج وأنجب، واكتفى بعمله الخاص، كما يسمي المحل الصغير الذي ورثه عن أبيه.

لم يتوقف عن الكلام، يحدثني عن أسماء لا أتذكرها لزملاء الثانوية، أهز رأسي متظاهرًا بمعرفتهم، أخبرني أنهم يتجمعون كل مساء خميس في المحل هنا، وشدد عليَّ بالحضور.

في ليالي الخميس أشعر بالوحدة، أتذكر زحام مقهى الحرية والصخب الشديد، ومحاولاتي المستميتة للتأخر أو البيات في هذه الليلة بالذات للاستمتاع بها إلى آخر قطرة، ورغبت في استبدال هذا حتى لو بجلسة في محل صغير مع أشخاص لا أتذكرهم.

لا تنظري لي هكذا أرجوكِ، ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ فراغ رهيب في صدري أملؤه بدخان الحشيش، وحده القادر على تحويل

أحاديثهم إلى أحاديث ظريفة تثير انتباهي كما كانت أحاديث أصدقائي في وسط البلد، ووحده كان يساعدني على قراءة الكلمات المتناثرة التي تخرج أمام عيني من أفواههم، وترجمتها إلى أمور مهمة فعلًا.

كيف كنت تعتقدين أنني تقبلت كل ما تلا ذلك؟ عمتك التي لا تملك نصف موهبة، ينشر لها كل أسبوع مقال في مجلة مشهورة، حتى إنها بدأت في السفر إلى القاهرة لحضور اجتماعاتها، والعودة للحديث عما قالته لها رئيسة التحرير، ومحرر الصفحة.

لكن هل تعرفين أكثر ما ضايقني يا كاميليا؟ أن جدك كان فخورًا جدًّا، يحتفظ بالأعداد ويجلدها في مجلدات زرقاء فخمة، مكتوب عليها اسمه بماء الذهب، يقرأ تحقيقاتها بتمعن ويناقشها فيها، يتركها تتأخر كما تريد وتسافر وقتما تريد. لم يحاسبها ولم يطالبها بضرورة الانتباه إلى كليتها وهي في عامها الأخير، وحتى بعدما تخرجت، كان يسعى لتستلم تعيينها أيضًا، لكنه لم يضغط عليها في أيّ شيء.

كنت أجلس في محل صلاح أدخن الحشيش، وأتذكر حياتي السابقة التي بدت كحلم بعيد، أتخيل شقيقتي تحل محلي الآن في مقهى الحرية، وأفكر كيف تتصرف. بالتأكيد اندمجت كعادتها أكثر مني، بالتأكيد تستمتع بكل شيء، لا مانع من بعض التنازلات الصغيرة لضمان الاستمرار، ربما تنال في النهاية حق التعيين وربما الالتحاق بالنقابة.

انتقلت للعمل في طنطا، في نفس السنة التي استلمت فيها كاميليا تعيينها، بتنا نعمل معًا في مدرسة واحدة، لم تضطر إلى العمل في القرى والأرياف، كانت وساطة أبي هذه المرة أقوى بالتأكيد، تظاهرت بأني لم ألاحظ وهنأتها.

تأتي إلى العمل بنصف اهتمام، تستغل جمالها ولباقتها لتلتف على المواعيد الرسمية وتغادر مبكرًا يوم الخميس لتتمكن من السفر.

توقفت أخيرًا عن الاهتمام. ولم أعد حتى أتظاهر بالنظر إلى المقالات المنشورة ولا قراءة عناوينها، لكني كنت أمطرها بأسئلتي كلما استعدت للرحيل أو عند رجوعها. لماذا تأخرت، ومن قابلت؟ أطالبها بالعودة مبكرًا وارتداء ملابس محتشمة.

ـ ربما عليك ارتداء الحجاب مثل نادية.

تنظر لي بدهشة ولا ترد، أحيانًا تتمتم بكلمات لا أسمعها وتذهب إلى حجرتها. مرة واحدة تساءلت ساخرة عن رأيي الديني في الحشيش بمناسبة دعوتي إلى الحجاب بهذا الحماس. لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أصفعها على وجهها.

شدني أبي من يدي وبدا غير مصدق إلى أين وصلت، وقفت نادية ترتجف خوفًا من توتر الموقف، تحاول التربيت على ظهر كاميليا، لكنها أبعدت يدها ومشت بهدوء إلى غرفتها، لم أعد أرى بشكل جيد، أشعر بسخونة في رأسي وضغط على أذنيَّ، حتى صوت أبي الحاد لم أسمعه بوضوح.

ـ تضرب أختك وأنا حي؟ أنت بالتأكيد قد جننت، الحشيش لحس عقلك.

ـ أختي وأربيها.. أنا أعرف جيدًا ما الذي يدور في هذا الوسط.

ـ هذا الوسط الذي كنت تعشقه وتتمناه، أليس كذلك؟

صدمني رده، وشعرت أنني مكشوف للغاية، حتى إنني رأيت نفس التساؤل في عيني نادية، ولم أجرؤ على الاستمرار في الكلام ولا حتى مغادرة المنزل.

جلست في الشرفة وحيدًا كما كنت طوال عمري. ولم أعد أعرف ما الذي يجب عليَّ فعله. شعرت بالندم والتمزق، وأنني تحولت لشخص آخر لا أستطيع التعرف عليه.

الحياة غريبة يا كاميليا، دائرة مغلقة نلف فيها مثل الثور في ساقية، شعرت أنني غير قادر على التنفس وتمنيت لو اختفيت، أو ابتعدت، هربت أو ذبت.

في الصباح التالي، كنت واقفًا بنصف عقل في الفصل أمام طلبة لا يسمعون، أكتب بعض الكلمات على السبورة لينقلوها وننتهي، حين سمعت طرقات على الفصل.

كان الأستاذ جمال مدرس الرياضيات، الشخص الوحيد الذي أرتاح إليه في المدرسة، والذي يقرضني المال في أيّ وقت من الشهر دون سؤال. خجولًا لا يستطيع رد طلب، يحمر وجهه ويتلعثم في الكلام، يبتسم بنصف فمه وأنا أعده بإرجاع المبلغ في أسرع وقت، ويتمتم بأننا إخوة.

ناداني جمال فاتجهت إليه، واربت باب الفصل خلفي وأنا أدعو الله ألا يطالبني بديني الأخير، كان تلعثمه أكبر من أيّ وقت، استغرق دقيقتين ليقول إنه يود سؤالي عن شقيقتي، هل هي مخطوبة مثلًا؟

فهمت أنه يريد التقدم لكاميليا والخجل يمنعه، كتمت ابتسامتي وأنا أنظر إلى وجهه المحمر والعرق الذي يغمر جبينه. والحقيقة أن شجاعته أثارت إعجابي، يكفي أنه تجرأ وفكر في الزواج بأجمل فتاة في المدينة، التي رفضت نصف رجالها، وهو يعلم جيدًا أن مصيره لن يكون مختلفًا. أخبرته بأن هذا ليس مكانًا مناسبًا، لكن ربما عليه مفاتحتها هي في الأمر.

كنت أعرف أنه سيعجز عن ذلك، وكانت هذه طريقتي في إنهاء الموضوع؛ لأنني أدركت أن كاميليا سترفض حتمًا ولا داعي لإحراج الرجل الذي أحتاجه أحيانًا.

لكن يبدو أن أم عمك جمال كانت طيبة حقًّا وتدعو له باستمرار، لم تمر أيام قليلة، حتى حصل ما عرفْتِهِ، حُبست عمتك في البيت، وصارت سيرتها على كل الألسنة. نصحتني نادية بأن أعود إلى الرجل، أن أسأله إن كان لا يزال يرغب في الزواج من شقيقتي، قالت إن هذا في مصلحتها ومصلحتنا، إن الكلام سيموت تمامًا إن هي تزوجت. أعجبتني الفكرة رغم ما يترتب عليها من إحراج نفسي، لكني قررت أن أتجاهل هذا الإحراج، وأن أتغلب على الخجل. لم أفكر سوى في كاميليا، رغبت في إنقاذها بأيّ طريقة ولو كانت هذه الطريقة تزويجها لأول طارق، وفي اليوم التالي، اتجهت إليه في غرفة المدرسين، وفاتحته في الموضوع بنفس نبرة صوت طلبي لسلفة. وافق بلا تردد.

إلى اليوم لم أكن أعرف تفاصيل ما حدث معها، لم تحكِ لي ولا لأيّ شخص في الكون، كانت تنظر لنا بعينيها الميتتين دون رد، تتطلع إلينا وكأننا نحن من ارتكبنا مصيبة. والحقيقة أن نظرتها كانت تخيفني جدًّا، تخيفنا جميعًا حتى أبي. بمرور الأيام توقفنا عن الحديث في الموضوع وكأن هذا كافٍ لإسقاطه، وعندما تزوجَت شعرت بالسعادة، على الأقل ضمنت لها استمرار حياتها مع رجل طيب.

عندما قرأت هذه الأوراق اليوم، استعدت كل شيء من جديد في عقلي، لا أعرف كيف أصف مشاعري، هذه شقيقتي الوحيدة، ابنتي الكبرى، من المؤلم أن أعرف اليوم قدر الألم الذي ربما كنت سببًا

فيه، ولو بوقوفي ثابتًا لا أدري ماذا أفعل، تتنازعني الكثير من المشاعر، شعور بأنني كنت على حق عندما أدركت بأن طريقها هذا سيؤدي بها إلى المهالك، وشعور آخر بأنني كنت سببًا في كل ما حدث. شعور بأنني كان يجب أن أبذل جهدًا أكبر لمنعها من التورط في كل هذا، ثم شعور بأنني نذل، تخليت عنها وألقيتها في حياة لا تريدها لمجرد التخلص من فضيحة.

هل تعرفين بماذا اتهموني عند اختفاء عمتك؟ بأنني طردتها من بيت أبيها؛ لأستولي عليه كاملًا، أو أنني قتلتها في نوبة من نوبات غضبي التي يسمع بها الجيران عندما كنت أضربك أنت أو شقيقتك، هل تعرفين ما الحقيقة يا كاميليا؟ الحقيقة هي كل ما يقولون، أو عكسه تمامًا، ربما قتلتها يوم زوّجتها لجمال، أو يوم أخبرتها أمامه بأن لا تعتب بيت أبيها مرة أخرى. كنت أدرك جيدًا تأثير هذا عليها لكنني نطقته بلا تردد، لم أملك أي مشاعر وقتها، كنت قادمًا من محل صلاح، أنوي ألا أدمر المزاج الجيد الذي حصلت عليه، لم أرد سوى إنهاء الموقف أمام جمال، أن أقف في صفه حتى لا يعاند ويتخلص منها، وأعود أنا لحمل عبئها من جديد.

عندما أفقت شعرت بالندم، كنت أرسلك وشقيقتك مع أمك للتخفيف عنها ولو قليلًا، خجلت من الذهاب إليها بنفسي والاعتذار، هذا هو أكثر ما أندم عليه الآن.

أنت تعرفين أنني استمررتُ في البحث عنها إلى أن سقطت بسبب المرض، كنت أقف في المشارح وأتأمل الجثث لدقائق قبل أن أخبرهم بأنها ليست شقيقتي، أدس في يد العامل عشرة جنيهات وأطلب منه أن يهاتفني في أيّ وقت تصل فيه جثة سيدة مجهولة الهوية.

سافرت إلى القاهرة والإسكندرية والزقازيق وميت غمر وكل بلد نملك فيه ولو قريبًا من بعيد، لصقت صورها على أعمدة محطة طنطا ومحطة مصر، ونشرتها في الصحف، تخيلي اسم عمتك صار في باب المفقودين بعد أن كان يكتب بخط عريض على مقالات منشورة، تأكدت وأنا أتأمل صورتها بالأبيض والأسود أن الحياة هشة.

عندما أنظر إلى وجهك أرى وجه عمتك، لكن ليس هذا ما يفزعني، أكثر ما يفزعني هو نظرتك التي تذكرني بنظرتها، هذه الرغبة المتأججة في الذهاب بعيدًا، في الهرب إلى عالم آخر، عدم القدرة على التأقلم مع الواقع، ورفض الحياة التي نعرفها.

كلما رأيت نظرتك هذه لا أتمالك نفسي، أريدك أن تفيقي، ألا تضلي الطريق وتأخذي نفس طريقها، أصفعك لأنبهك، لكن بلا فائدة. ماذا تعتقدين كان شعوري عندما هربت؟ أنتظرك في الشرفة مع أمك التي تولول، وتتهمني بأن شقيقتي هي السبب، نقلت إليك كل مصائبها وجنونها، وأدعو الله أن تظهري في نهاية الشارع، أن تتحججي بالدروس أو رفقة الأصدقاء مثل كل مرة تتأخرين فيها وأضربك، قلت لنفسي: تظهر فقط ولن أضربها هذه المرة، سأتركها تمضي بعض الوقت مع أصدقائها، تذهب إلى محل الكمبيوتر، إلى السينما حتى، لكن لا تختفي مثل عمتها.

لكنك اختفيت، ونزلت إلى الشارع أبحث عنك كالمجنون، هل تدركين قدر الألم الذي كان يمتص عظامي لحظتها؟ قدر التعاسة التي تمنع صوتي حتى من الخروج؟ أحاول رفعه بقدر المستطاع لأسأل صديقاتك عنك، لأسأل أصحاب المحلات أمام المدرسة، أسأل مدرسيك في مراكز الدروس: أيّ فضيحة سببتها لنفسك ولي؟ هل

فكرت في أبيك وهو يقف ذليلًا أمام بعض الصبية في محل الإنترنت يسأل عن ابنته؟ ليتهتهوا في الكلام، ويخبروه أنهم لم يروك اليوم أنت وفتى آخر تقفين عادة معه.

شعرت بمخي يحترق، طلبت من أحدهم أن يقودني إلى منزله، ظل ينادي على اسمه من الأسفل دون رد، في النهاية ظهرت أمه لتخبرنا بأنه غير موجود، كنت فاقدًا لأعصابي أسبها وأسبه حتى نزل لي أبوه، أخبرته بالقصة كلها، هل تتخيلين مشاعري وأنا أخبر غريبًا بأن ابنتي هربت، وأنها ربما هربت مع ابنه؟ كان مرتبكًا لا يدري ماذا يقول، لكنه دفع التهمة عن الولد، صاح بي مطالبًا أن ألمّ ابنتي، وألا أتبلى على أولاد الناس وتركني واقفًا أشعر بخزيّ لم أشعر بمثله يومًا.

لم أعد أدري ما الذي أفعله، أو إلى أين أذهب، ليلة كاملة أبحث عنكِ في المستشفيات والشوارع، تذكرت جولاتي على المشارح للبحث عن عمتك وارتجفت، تمنيت ألا أجدك جثة راقدة في ثلاجة ضيقة، كما كنت أتمنى ذلك وقتها. ثم دعوت الله أن أجدك فحسب، حية، ميتة، أيّ شيء، إلا أن تختفي أنتِ أيضًا وأتعذب أنا من جديد.

عندما عدت ووجدتك في البيت، لم أفهم شيئًا، لم أكن أريد فهم شيء، شعرت بارتياح غامر أنكِ هنا، على قيد الحياة، لم تتلاشِ مثلها، لكني لم أكن قادرًا على التحكم في أعصابي، كنت أضربك من كثرة الرعب، أعاقبك وأعاقب نفسي، أنتقم من عمتك ومن نفسي.

تتهمينني بالقسوة، تنظرين إليَّ وكأنني قتلت عمتك وقتلتك، تسمحين لنفسك بالتعاطف معها ولا تتعاطفين معي. تعتقدين مثل

الجميع أنني نسيتها؟ ألا تعرفين أنني إلى اليوم لم أتخلص من حاجياتها؟ أتخيلها تعود من أجلها، تدخل البيت وكأنه يوم عادي، تدلف إلى غرفتها أو تقف في الشرفة وكأنها لم تختفِ يومًا، أفكر فيها كل يوم، وأتساءل: ماذا ستقول إن وجدتني قد نسيتها مثلما نسيها الجميع؟

تذكري أن بدء أي حياة جديدة أمر في غاية السهولة رغم كل شيء، لكن الصعب هو مدى قدرتك على التخلي عن حياتك القديمة. على طمس ذكرياتك، وحذف أجزاء منها.

هل تدركين كم هو قاسٍ الشعور الدائم بالندم؟ بالإحساس العارم بالذنب؟ إلى اليوم تطاردني صورة كاميليا وهي تقف على باب جارتنا بفستانها الأصفر، شعرها يغطي جبينها، وشفتاها مزمومتان، تنظر لي، وترجوني ألا أتخلى عنها. وأعلم في قرارة نفسي أنني للأسف فعلت.

قطة ميتة وساق خشبية حيّة

من أوراق كاميليا عاطف

بينما كنت أنتظر الموت، مات أبي. بهذه البساطة انتهت حياته، مات وحيدًا كما كان يأمل، وكما كنت أخاف.

كان شقيقي وزوجته قد ذهبا للاصطياف مع طفلتيهما، وكنت قد نظمت وقتي للمرور عليه عصر كل يوم؛ لأتأكد من تناوله الطعام والدواء، وأضع في الثلاجة غداء اليوم التالي. هذه المرة تأخرت قليلًا، توقفت على بُعد أمتار من البيت، بعدما لاحظت جسد قطة صغيرة بلا حراك على الرصيف.

كانت قطة منزلية رمادية لا يتعدى عمرها شهورًا، وكانت تحتضر. ملقاة على جانبها، بعينين جامدتين، وأقدام مفرودة، وبدا واضحًا أنها سقطت من علٍ، لصغرها لم تتمكن من الوثب كبقية القطط، فانكسرت جمجمتها. تحتضر القطط ببطء وكأنها تفرغ أرواحها السبع، ترتجف ساقها الخلفية، ويتشنج فمها. شعرت بالشفقة تغمر قلبي، ولم أستطع تركها تموت وحيدة. لا أتصور أن يموت كائنًا ما كان وحده، بلا يد تربت عليه، وصوت يخبره أن هناك شخصًا بجواره.

تأخرت لأنني لم أرد ترك القطة الصغيرة تموت وحدها، فتركت أبي يموت وحيدًا.

عندما وصلت بعينين دامعتين إلى البيت، كان جالسًا على الكنبة أمام المائدة الصغيرة، غداؤه عليها لم يمس، وكوب الشاي الذي

صنعه بنفسه لا يزال ساخنًا، مات ربما قبل دقائق، ممسكًا بالملعقة بينما يستعد لتناول طعامه.

لم يكن يتنفس. كان رأسه مسنودًا على مسند الكنبة، ويداه هامدتين بجواره، وعيناه مغمضتيْن. بدا وكأنه أراح رأسه لدقيقة، فذهب.

لم أفهم ما حدث بالضبط، جلست بجواره دون حركة، أمسكت يده الباردة، ولم أقوَ على الحركة. عندما حضر جمال لاصطحابي بعد ساعات مرت دون أن أشعر، وجد المشهد المفزع أمامه. عندما أتذكره أشعر أنا أيضًا بالفزع، ربما أراد الله حمايتي من حضور لحظة موته فأرسل القطة لتموت أمامي بدلًا عنه، أو أراد عقابي لأشعر بالذنب طوال عمري؛ لأنني تخليت عن أبي من أجل قطة.

ناولتني جارتنا كوب ماء أذابت فيه ملعقتيْ دقيق وسكر، وطلبت مني أن أتناوله لعلاج «خضة» الموت. لكنني رفضت، أريد أن تستمر معي هذه «الخضة» كما أسمتها، أريد أن أشعر كل يوم بالفزع والحسرة والذنب. كنت أريد التكفير عن ذنبي بعد أن رأيت نظرة الاتهام في عينيْ شقيقي بعد وصوله. لم يتوقف عن النظر لي بهذه الطريقة بعدها، وشعرت أنني بالفعل من قتلت أبانا.

كان أبي ذا هيبة في المدينة، فقد ساقه اليمنى خلال حرب الاستنزاف، لم يكد يتم فترة تدريبه في كلية ضباط الاحتياط بعد تخرجه في كلية التربية الرياضية. ذات يوم كان يسير ويمزح مع صديقه، ثم سطع ضوء قوي في عينيه، لم يسمع حتى صوت الانفجار، غاب عن العالم ولم يفق إلا بعد مرور عدة أيام في مستشفى القوات المسلحة. ولم يفهم ما حدث على حقيقته إلا بعد ساعات طويلة.

بمرور الزمن، توقف أبي عن رثاء نفسه، توقف حتى عن الحديث حول الأمر، يبدو غير منتبه لفرادته التي أراه عليها، كان في نظري بطلًا خارقًا بساق واحدة، لكنه كان يرتبك حين يراني أنظر إليه بانبهار، يشيح بوجهه بعيدًا، ففهمت أنه لا يميّز بين الفخر والشفقة.

حتى جاء اليوم الذي تحدث فيه بصدق لم يكرره بعدها قط، كان صباحًا شتويًّا باردًا، استيقظت مبكرًا فوجدته جالسًا في الشرفة وحده، ناديته مرتين فلم يسمعني، اقتربت منه، ووضعت يدي على كتفه، فرفع رأسه إليَّ وابتسم، سألته إن كان يرغب في كوب من الشاي فهز رأسه بالإيجاب.

حضرت كوبي الشاي وبعض السندوتشات، وحملت الصينية عائدة إلى الشرفة، ناولته سندوتشًا فمد يده متسائلًا بابتسامة عن سر رضائي عنه اليوم.

لم يكن هناك سبب محدد، شعرت بدفقة كبيرة من الحب تجاهه بلا سبب، كنت أتأمل وجهه وأتغزل في وسامته، وكان يضحك ضحكته التي لا أنساها.

كان الضجيج يزداد شيئًا فشيئًا في الشارع، والغيوم تخفي الشمس تاركة ضوءًا شاحبًا مثيرًا للشجن، عندما أخبرني بعد صمت طويل بأنه لا يزال يشعر بساقه المبتورة في مكانها، يحرك أصابعها، ويثنيها ويفردها، أحيانًا يرغب بحكها. يشعر أن وجودها أقوى من وجود القدم الباقية، وعندما يضع ساقه الخشبية التي أمضى شهورًا عديدة يحاول تعلم السير بها، يشعر وكأنه يحشر ساقه الحقيقية داخلها، يشعر بأن خشبها يخدش جلده، يؤلمه.

تولت جدتي دفن ساق أبي بعد بترها، حملتها في لفافة بيضاء، كفن أصرت على شرائه بنفسها، وعادت بها إلى المدينة، دفنوها في مقابر العائلة، بجوار جدي وعمي، كانت تبكي هذا الجزء من ابنها الذي اضطرت لدفنه، أما أبي، فعاش طوال عمره بهاجس الدفن. يفكر بأن جزءًا منه تآكل وتحلل، بينما استمر هو في العيش والتنفس.

بعدما فقد ساقه، شعر بأن حياته كما عرفها انتهت، لم يعد راغبًا في مغادرة المنزل، ولم يكن متمكنًا من السير بساقه الصناعية، يشعر بسخرية الآخرين منه، رغم الاحتفاء الذي يبدونه بكونه بطل حرب، يشعر بالغضب وينفي أنه حارب وكأنها تهمة، كان عالقًا بين البطولة والمهانة، وبين ماضيه وحاضره، شعرت جدتي بما فيه، وخافت عليه من الاستسلام لليأس والفراغ، فأصرت على تزويجه؛ ليبدأ حياة جديدة.

اختارت جدتي أمي زوجة لأبي بعد أشهر قليلة من تسريحه من الجيش، الذي منحه شقة سكنية تعويضًا له عن خسارته. نفس الشقة التي ولدت وكبرت فيها، والتي كنت أشعر دائمًا أن ثمنها قدم أبي، وأن هذا البيت فعليًّا قام على لحم أبي وعظامه.

لم يكن أبي راغبًا في الزواج، كان عاشقًا لحياة العزوبية، تحبه الفتيات بعينيه العسليتين وشاربه المشذب وحديثه المعسول. كان يحب سرد مغامراته النسائية قبل الحادث، يخرج صندوقًا متوسط الحجم يحتفظ به في دولابه؛ ليريني البطاقات والرسائل التي كانت ترسلها له الفتيات، ربما صورهن الشخصية أيضًا، وعلى ظهرها إهداءات بالتواريخ.

لم يتقبل أمي قط، رغم أنها كانت بالفعل بمثابة ملاك من السماء، فتاة ريفية من قرية أمه بجوار الزقازيق، قبلت الزواج بلا تفكير، تبدو وكأنها لا تلاحظ عاهته. تتعامل معه وكأن جميع البشر ولدوا بساق خشبية، ربما بدا لها مُخلّصًا من المدينة، وناقلًا لحياة جديدة تمنتها، تصبح فيها ملكة لشقة تمليك مجهزة، وزوجة رجل وسيم، تسلم عمله في التربية والتعليم. يعدها بحياة مستقرة ومستقبل آمن.

شيئًا فشيئًا، تأقلم أبي مع حياته الجديدة، وبدا قادرًا على السير بشكل طبيعي في الشارع مستندًا على عصاه ذات المقبض النحاسي. حتى في البيت بساقه الوحيدة، كان يتنقل حاجلًا بخفة مدهشة مستندًا على عكاز حديدي، عاقدًا سروال المنامة حول ما تبقى من الساق.

الحياة تستمر، والحب يأتي بالتعود. الروتين اليومي لم يكن سيئًا كما كان يتخيل، بات زوجًا وأبًا مسئولًا، وشعر أخيرًا باكتماله.

لم يعرف أنه كان يحبها إلا بعد موتها، حينها أيقن أبي أن لا أحد كان قادرًا على تحمل نزقه وعصبيته سواها، وغرق في شعور عميق بالحزن على معاملته القاسية لها في بعض الأحيان. أدرك أنه أضاع سنوات سعيدة دون أن يشعر بالحب، والآن بعد رحيلها، يتغلب الحب عليه، ويشعر بالاشتياق يؤلم عظامه، لم يعد قادرًا على الحجل بساق واحدة، ولا السير بظهر مستقيم في الشارع.

قرر أبي ألا يتزوج بعدها، وسخّر حياته من أجلي أنا وناصر، كل الحنان الذي حرم أمي منه، غمرنا به. وبدا للجميع وكأنه قد تحول، الشخص الكئيب الغاضب بات مسالمًا بشوشًا، والعطف الذي كان مدفونًا في قلبه، طفا على السطح فأغرق به الجميع.

بعدما انضم إلى أمي وطرفه الذي سبقه في الرحيل، فكرت أن شملهم جميعًا قد التمّ، أدمنت تخيلهم معًا في عالمهم الجديد، وأبي يسير مستقيم الظهر بلا عرج إلى جوار أمي، التي أولت بكل تأكيد عناية فائقة لساقه المبتورة ليجدها على حالها في انتظاره.

احتفظت بساقه الصناعية في بيت جمال بعدما استشعرت وجودها الثقيل على أخي وزوجته، كانت تذكرهم به، قالوا إنها مفزعة للصغار، رغم أنها في حياته لم تكن كذلك. كان وجودها مبهجًا، اكتشافًا غريبًا ولعبة مسلية، مثل سيقان الدمى لكن أكبر حجمًا. كانت البنتان تلعبان بها وتطرقان عليها، وتناولانه إياها. لكنني تفهمت مشاعرهم جميعًا، بعدما وجدتني أحدق فيها طوال الليل غير قادرة على النوم، وعندما غفت عيناي، شعرت بأن أحدًا يجذبني من ساقي، استيقظت مفزوعة لأجدها مكانها لا تزال.

غلفتُ ساق أبي الخشبية بالمشمع والقماش، ووضعتها أسفل السرير، وكأنني أدفنها هي الأخرى، لا شيء أقسى من الفقد سوى الفقد غير المكتمل، سوى الأثر الذي يبقى بعد رحيل الأحباء، رائحة عطرهم، ملابسهم، ساعة اليد والنظارات، طقم الأسنان في كوب زجاجي، والبقايا التي تتبقى في جيوب المعاطف وزوايا الأدراج. ربما لهذا نتخلص من أشياء الميت فور رحيله، لا نقوى على النظر إليها، وتذكرها عندما كانت تشع حياة، ثم باتت هامدة بلا روح.

عندما أتذكر أبي، أتذكر صوته وهو يناديني بعلوه الصاخب، أتذكر جلسته في الشرفة يحل الكلمات المتقاطعة ونظارة القراءة على منتصف عظمة أنفه، أتذكر طاقيته التي يرتديها بعد الاستحمام صيفًا وشتاءً خوفًا من الإصابة بالبرد، أتذكر إصراره على تدميس

الفول بنفسه، وتسجيل حفلات عبد الحليم حافظ من الراديو على شرائط الكاسيت بنفسه.

أشعر بأنه لم يعش حياته التي كان يتمناها، وأنه مرَّ كطيف عابر، تذكرت يوم جلسنا في الشرفة معًا ذات صباح، وفهمت سر الشفقة التي اعترتني تجاهه، الحب الذي لم أتمكن من تفسيره وقتها. حزنت لأنه لم «يشبع» من الحياة أو يتعمق فيها. أخذها من على السطح، واكتفى بنصيبه القليل منها، مستسلمًا لكل يوم يمر بلا فرادة، سائرًا مع السائرين في سكون. وشعرت بغصة لأنني أسير على نفس الطريق، وبنفس الاستسلام دون مقاومة.

أغمض عينيَّ وأحاول استعادة رائحته، وتذكر عدد التجاعيد على جانبي فمه، صوت نحنحته، نقرات عكازه والصوت العميق لخطوة قدمه الواحدة تحجل في الطرقة ليلًا وهو يطمئن على كل شيء قبل النوم.

الغريب أن هذه التفاصيل كانت تهرب مني يومًا بعد يوم، تتسرب كالماء من عقلي، ولا يتبقى أمامي سوى عينيْه المنكسرتيْن الدامعتيْن، وثقل يده على وجهي. والأغرب أنني تمنيت لو يعود الزمن ويتوقف ولو عند هذه اللحظة، سأتحمل الصفعات وأقبل يده كلما مست وجهي؛ مقابل أن أراه مرة أخرى أمامي.

٨

منذ اليوم الذي وجد فيه أبوها مذكرات عمتها، وكاميليا تحظى ببعض الحرية التي لم تنَلْها من قبل. لم يعد ينتظرها في الشرفة عندما تتأخر خمس دقائق عن ميعاد عودتها من الدرس أو المدرسة، لم يعد يقتحم غرفتها كما في السابق، حتى سبابه الدائم قلَّ، كان يحاول التحكم في نفسه أكثر، يحمر وجهه من الغضب أحيانًا ويبدو كما لو كان سينفجر، لكنه يجز على أسنانه ويضم قبضة يده، يشيح بوجهه بعيدًا عنها، أو يلقي ببعض الكلمات لأمها ثم يحبس نفسه في غرفته، حتى قعدات السهر لدى صلاح قلت.

لكنها لم تتوقف عن كراهيته، لم تشعر بأيّ تعاطف مع قصته، على العكس، زاد تأكدها من كونه السبب في اختفاء عمتها، موتها أو انتحارها، شعرت بأنه قتلها مثلما سيقتلها ذات يوم، وباتت رغبتها في الرحيل أكبر من أيّ وقت مضى.

كل ما كانت تملكه هو التظاهر بالخضوع لتتمكن من الاستمتاع بهذه الحرية القليلة لأطول وقت ممكن قبل أن يعود لسابق عهده. تمشي كاميليا عائدة من الدرس كل يوم وحدها، تمر على باعة الكتب القديمة الملاصقين لسور مستشفى الحميات، تتوقف أمام المجلات القديمة، والروايات العاطفية المترجمة، تشتري بعضها وتسير إلى ميدان الساعة، تتوقف لشرب الكابتشينو لدى عبد الفتاح مرزوق، تستمتع بلذة وقوفها وحيدة بجوار عمود ضخم في المحل الواسع، تتأمل رواده وهم ينتقون قطع الحلوى، أو يتدافعون أمام الخزينة

لدفع النقود، تتأمل المعروضات الملونة في الفتارين المضاءة، وأقدام السائرين الذين يظهرون ويختفون في الكادر الضيق لباب المحل الزجاجي أمامها.

عادت بدافع الفضول للعرج على مقهى الإنترنت، كان قد بدأ يخلو من رواده بعدما انتشرت وصلات الإنترنت في كل مكان، يجلس محمد مستسلمًا لتغيرات العالم أمام جهاز بات متهالكًا من كثرة الأيدي التي مرت عليه، ألقت عليه السلام بصوت منخفض فنهض مرحبًا. تأملها بلهفة سائلًا عن أحوالها، ودعاها للجلوس وهرع ليجلب لها علبة عصير من محل البقالة المجاور.

لم يكن محمد هو ما تتخيله عند التفكير في الحب، كان شابًّا عاديًّا لا وسيمًا ولا قبيحًا، لكنته ريفية قليلًا، متوسط الطول يرتدي نفس الملابس لأيام عديدة، ولا يبدو مباليًا بتنسيق ألوانها.

يجلس بجوارها دائمًا، ولا يقبل أن يأخذ منها مليمًا مقابل الساعات التي تجلس فيها إلى جهاز الكمبيوتر. عرفت أيضًا أنه كان يبحث عنها مع أبيها عندما أتاه سائلًا عنها في هذا اليوم المشئوم. وأنه تشاجر مع كريم بعد ذلك عندما وجده واقفًا مع بعض من رواد السايبر يضحك ويتحدث بصوت عالٍ، سمعه وهو يذكر اسمها في كلامه القذر، لم يتمالك نفسه، جذبه من ياقته وهدده بالقتل لو سمعه يتفوه بمثل هذه الأكاذيب مرة أخرى، ومنعه من دخول السايبر نهائيًّا، بعدها سمع أنه غادر المدينة، سافر إلى شرم الشيخ للبحث عن عمل ولم يعد بعدها.

كانت تستمع إليه وهي صامتة تمامًا، لم تعلق على ما يحكيه ولم تغضب مما عرفته، كان كريم قد تلاشى من عقلها وكأنه لم يحدث،

حتى إنها بدأت في تصديق كذبتها التي روتها لأبيها بعد عودتها حتى آمنت بأن هذا هو ما حدث فعلًا.

تأملته في وجه محمد، ولاحظت عينيه الطيبتين تنظران إليها بحب، لم يكن ينظر إلى زريْ قميصها المفتوحين أعلى صدرها كما الباقين، أو إلى شفتيها اللتين تضع عليهما قليلًا من زبدة الكاكاو، كان ينظر إلى عينيها فقط. وقتها شعرت بسعادة غريبة لم تشعر بها من قبل، وباتت تطمئن في وجودها قريبةً منه. تضع السماعات الكبيرة التي يحفظها لها خصيصًا ولا يسمح لأحد باستخدامها غيرها، وتجلس لمشاهدة الأفلام التي حفظها في ملف باسمها، وتشعر بنظراته طوال الوقت تحيط بها في سلام.

طلب منها أن لا تفر من المدرسة أو الدروس أبدًا، ووعدها إن جاءت بعد ميعاد الانصراف أن يسمح لها بالجلوس إلى أيّ جهاز تختاره بلا مقابل ودون وقت محدد.

تعودت على المرور عليه كل يوم، يجلسان في أوقات كثيرة وحدهما تمامًا في المحل، لكنه لا يضايقها ولو بنظرة غير لائقة، كانت ترتاح إليه، وتشعر بالسعادة من هداياه الصغيرة التي يفاجئها بها كل يوم: قطعة شوكولاتة، سوار من الخرز الملون، خاتم نحاسي، وزجاجة عطر صغيرة.

عندما تقاربا أكثر، وتمكن من امتلاك الجرأة الكافية لسؤالها لماذا يشعر بأنها حزينة طوال الوقت. أخبرته بأنها لا تطيق حياتها وترغب في الانتحار أو الهرب، حكت له بإيجاز عن حياتها الكئيبة، وأنها غير قادرة على العيش مع عائلتها، أنها لا تعرفهم، ولا تحبهم، وأنها ألفت الصفعات حتى باتت شيئًا عاديًّا يحدث كل يوم.

كانت تبالغ في الكثير من التفاصيل، وتصف حياتها بالبائسة رغم أنها لم تعد كذلك، تخبره أن أباها لا يمنحها مصروفًا، ولا يشتري لها ملابس جديدة، حتى مصاريف الدروس تضطر للتذلل من أجلها. لم يكن شيء من هذا حقيقيًّا، لكنها وجدت لذة غامضة في استدرار العطف. تنظر إليه وتسبل جفنيها، تتحدث بصوت خفيض وناعم، لم تدرِ إلى أين يقودها كل هذا، لكنها لم تتمكن من مقاومة قوتها في إخضاع الرجال، أحبت فكرة أن تكون طرفًا مؤثرًا في أيّ علاقة، أن تستغل جمالها في تحقيق أيّ شيء، أيّ شيء حتى لو لم تكن ترغب فيه.

أما هو فلم يكن ساذجًا، لكنه كان يشعر بالحب لأول مرة في حياته، شعر برغبة شديدة في حمايتها، واندفعت الدماء حارة إلى رأسه عندما سمع شكواها ورأى دموعها حبيسة في عينيها، لكنه لم يعرف ما الذي يجب عليه فعله، يود مساعدتها بأيّ شكل لكنه لا يعرف الكيفية.

ظلا صامتين لفترة، ينظر لها وهي تنظر إلى الأرض، تفرك كفيها بيديها، وترجع خصل شعرها خلف أذنيها. كان على وشك الذهاب ليشتري لها زجاجة مياه غازية وقطعة شوكولاتة ليشعرها باهتمامه، لكنها صاحت فجأة بصوت حاد أثار فزعه قليلًا:

ـ لماذا لا نتزوج؟

نظر إليها في دهشة، أما هي فاستكملت كلامها وكأنها فكرت فيه عشرات المرات من قبل، لم تعرف من أين جاءتها هذه الفكرة وكيف ولماذا؟ لكنها شعرت بهذه الطاقة الغريبة التي تتملكها كل حين وآخر، تضع في عقلها أفكارًا معقدة، وتدفعها لأفعال غير معتادة.

أخبرته بأنهما قادران على أن يهربا ويتزوجا، هي مستعدة لترك مدرستها والانتقال إلى بيته، ستقبل بالسكن في بيت غير مجهز يجهزانه معًا فيما بعد، ستعمل معه وتشاركه شقاءه، وسيضعان عائلتها أمام الأمر الواقع، عندما تصبح زوجته رسميًّا لن يتمكن أبوها ولا أيّ أحد من مسهما.

صمت قليلًا وهو ينظر إليها، يتساءل: هل هي جادة حقًّا؟ سألها إن كانت تحبه حتى. أومأت برأسها وهي تخفض عينيها. فأخبرها بأنه سيفكر في الأمر.

في اليوم التالي كان ينتظرها أمام السايبر، أخبرها بأنه فكر في الأمر، وأنه لا يوافق على خطتها الحمقاء، هو يحبها فعلًا، ويود التقدم لخطبتها من أبيها.

اتسعت عيناها دهشة، فأخبرها بأنه سيعمل جاهدًا لتجهيز شقته بأسرع وقت؛ لتتمكن من ترك بيت أبويها كما تريد، لكن مرفوعة الرأس بفستان أبيض أمام الجميع، وأنه يود المرور عليهم الليلة ليفاتح والديها قبل الزيارة الرسمية مع عائلته.

ألجمها الصمت، وشعرت أن الموضوع بات جديًّا، أومأت برأسها ولم تدخل السايبر، عادت إلى البيت بخطوات ثقيلة، كان العرق يغمر ظهرها، وقفت أمام أمها في المطبخ تخبرها بأن محمدًا ـ صاحب السايبر ـ يريد أن يزورهم الليلة.

سألتها عن السبب فلم تجب، حبست نفسها في غرفتها تتظاهر بعدم سماعها لصوت أبيها الحاد يصرخ متسائلًا عن سبب الزيارة، وعن المصيبة القادمة من خلف رأسها هذه المرة.

لم تغادر حتى المساء، تجلس ريم بجوارها تنتظر الأوامر، تطلب

منها الذهاب لسماع ما يحدث بالخارج، فتذهب وتعود بلا إجابة، تخبرها بأنه يجلس مع أبيها في غرفة الصالون، وأن أمها منعتها حتى من الاقتراب من الباب.

بعد ذهاب محمد، ناداها والدها، وأخبرها بأن الشاب يود التقدم لخطبتها، وأنه أخبره بأنها صغيرة جدًّا، لكنه يؤكد بأنه سيسمح لها بإكمال دراستها، بل سيكمل هو الآخر تعليمه المفتوح في كلية التجارة ليصبح مناسبًا لها.

بدت السعادة على وجه أمها وقد أثملتها فكرة زواج ابنتها الكبرى، بينما علا الهم وجه أبيها، أخبرها بأنه لا يوافق على الموضوع، وأنها صغيرة جدًّا وحتمًا ستغيّر رأيها بمجرد دخولها الجامعة، لكنها تحدثت بهدوء دون انفعال، وبصوت مرنت نفسها طويلًا على التحدث به، بأنها موافقة، وأنها تحبه وهو أيضًا يحبها، وترغب في الزواج منه بمباركتيْهما.

ضغطت على الجملة الأخيرة وهي تنظر في عيني أبيها، وظهر التحدي مرة أخرى واضحًا فيهما. تعرف أن نظرتها تخيفه، وتذكره كما أخبرها عشرات المرات بنظرة عمتها قبل اختفائها.

تدخلت أمها في الحديث، وتساءلت عن سبب رفضه، رغم أنه تزوجها هي نفسها صغيرة، كان الغضب يظهر شيئًا فشيئًا في صوت أمها، ولم يعد قادرًا على مجابهتهما معًا. وفي أعماق نفسه شعر ببعض الراحة لفكرة أن يتخلص منها ومن عبئها، فأعلن استسلامه سريعًا، وأخبرها بأنه سيرد على الشاب بالموافقة المبدئية.

٩

طوال عمرها وعلاقتها مع أمها مقتصرة على تلقي الأوامر، لم تكن تكرهها مثلما تكره أباها، لكنها لم تشعر نحوها بشعور واضح، تقلق عليها عندما تمرض أو يرتفع ضغطها، تبكي وتقرر أنها ستحسن معاملتها وتتوقف عن الشجار معها. وبمجرد تحسنها تعود إلى ما كانت عليه.

لا تذكر أن أمها جلست معها للحديث والدردشة، كما كانت تشاهد أمهات صديقاتها القليلات اللاتي زارتهن في بيوتهن، لا تحدثها في أمور البنات، ولم تعلمها كيف ترتدي حمالة الصدر لأول مرة، أو كيف تنزع الشعر من تحت إبطيها وساقيها، عندما جاءتها الدورة الشهرية للمرة الأولى، اكتفت بإلقاء تحذيرات مرعبة طويلة عليها، لم تخبرها عن الأمور الأهم؛ ماذا تفعل عندما تنتهي. كيف تستخدم الفوط الصحية. أيّ حجم ينبغي عليها شراؤه. كيف تتحمل المغص المؤلم المصاحب لها. اضطرت لتعلم كل شيء وحدها، وبعدها لم تعد تتوقع منها شيئًا، أو تسألها عن شيء.

روتين أمها محفوظ، تنهض في الصباح لتوقظها وشقيقتها، تحضر الإفطار لأبيها، ثم تظل في المطبخ إلى أن يعودوا جميعًا ليجدوا طعام الغداء معدًّا. تنام قليلًا بعد الظهر، وتنهض لمشاهدة مسلسل السابعة مع ريم، تطلب من كاميليا كوبًا من الشاي أو اليانسون، وربما تجلس في الشرفة قليلًا إن كان الوقت صيفًا.

الكلام كله عبارة عن تساؤلات أو أوامر، هل أنهيت واجبك؟ هل

نظفت الغرفة؟ هل جففت الحمام بعد الاستحمام؟ حضري المائدة، املئي زجاجات المياه، أعدي القهوة لأبيك.

لذلك كان غريبًا أن تستدعيها أمها للوقوف معها في المطبخ صباح الجمعة، دون أن تطلب منها فعل شيء، كانت رائحة البخور تملأ أنفها وتمنعها من التنفس، وصوت القرآن ينبعث من الراديو الصغير المعلق على مسمار بجوار الشباك يشتت انتباهها. ظلت أمها صامتة لدقائق طويلة، وهي تقف لا تدري ما عليها فعله، ثم سألتها فجأة عن مدى جديتها في الزواج.

لم تجد كاميليا ردًّا مناسبًا، تمتمت بكلمات عن ارتياحها للفتى، وأنها تعرف قدراتها المحدودة في الدراسة والتعلم، ورغبتها في ضمان حياة مستقرة.

سكتت أمها لدقائق، ثم تنهدت ببطء، طلبت منها أن تسبقها إلى مائدة السفرة، وعادت حاملة صينية أخرى تنقي فيها حبات الأرز. جلست بجوارها على المائدة، وطلبت منها أن تنتبه لما ستقوله.

نادية إسماعيل

لن أكذب عليكِ، عندما رحلت عمتكِ شعرت بالثقل على صدري يبدأ في التخفف، كان وجودها قاتمًا، ولم أستطع حتى التعبير عن ذلك، أسوأ شيء هو التظاهر بمحبتكِ لأحد، المحبة معقدة، التظاهر بها لا يؤذي من حولكِ، بل يؤذيكِ أنتِ، ويقتطع من روحكِ.

كانت المدللة، وصاحبة البيت، والأجمل والأكثر ذكاءً، كنت بجانبها خفيّة، لا أرى، مجرد طيف يتحرك من حولهم، يغسل الصحون وينظف المائدة ويربي الأطفال، خادمة بلا أجر في بيت لا تنتمي إليه، وهي تجلس أمامي كالملكة، تحتل حيزًا ضخمًا في القلوب والأمكنة، بلا جهد ولا استحقاق.

كنا معًا في المدرسة، كانت زعيمة الطالبات، تتمحك بها الفتيات طلبًا لودها؛ ليسرن بجوار الفتاة الأجمل في المدينة، بينما أسير وحدي، أو بصحبة بائسات مثلي. تجلس في الصف الأخير، وأجلس في الصف الأمامي، أحاول الانتباه إلى كل ما تقوله المعلمة، لكني لا أحظى أيضًا بنصف الاهتمام الذي تمنحه لكاميليا.

الجمال قوة، يمنح صاحبه ميزات لا يستحقها، ويمنحه قساوة غير مفهومة في القلب. تسير كاميليا بجواري دون أن تنتبه، رغم أننا جيران، الشباك أمام الشباك، لكنها لا تمشي معي من المدرسة إلى البيت أو العكس، أمشي وحدي، وتمشي وسط عصابتها بخيلاء.

كنت هادئة، نحيفة، قصَّت لي أمي شعري قصيرًا حتى لا يضايقني،

وكانت تسخر من شعري هي وعصابتها، يتهامسن بأنني بالتأكيد صبي متنكر، جاء ليتجسس على البنات في المدرسة، يضحك الجميع وأبتسم أنا لمجاراتهن.

يقفن كل يوم مع الأولاد من مدرسة الأحمدية المقابلة، كانت النظرات كلها تنصب عليها، بينما تقف الفتيات بجوارها محاولات أخذ نصيبهن منها. لم يعرني أحد أي اهتمام، ولم تأتِني خطابات عاطفية، ولم تكن لي أي مغامرة مثل التي يحكينها في الفسحة، أو فيما بين الحصص.

كاميليا بالذات كانت تتفاخر بخطابات معجبيها، تقرؤها على الفتيات وتسخر منها، بينما أشعر أنا بالشفقة على مرسلها، وعلى حظه الذي أوقعه في حب فتاة بلا قلب.

أحلم بالحب، وأشعر بأنني أستحقه، لكن لا أحد ينظر إلى داخل الروح، يأخذ الناس بالسطح، يفكرون على السطح، ويعيشون الحياة على السطح، لا يحاولون حتى التمعن قليلًا، والإحساس بأن الشكل الجميل لا يعني أبدًا القلب الجميل أو الروح الجميلة.

أكتب لنفسي الخطابات، أكتب كل ما أحلم أن يصلني، وأكتب عن برود كاميليا، وأنها لا تستحق، لا درجاتها النهائية التي بغير مجهود، ولا الشعبية الطاغية التي لا تعرف قيمتها.

كنت أسير وحيدة كالعادة إلى أن أسقط صبي صغير ورقة في يدي وجرى. شعرت بالخوف، وفتحتها بيدين مرتعشتين، كانت خطابًا عاطفيًّا حقيقيًّا، كلمات قليلة رقيقة تشيد بجمالي ورقتي، وتطلب مني اللقاء أمام فندق عرفة يوم الجمعة. كان جسمي يرتجف، ولم أفهم

شيئًا، كان الاسم مألوفًا لديَّ، محمد ناصر أخو كاميليا، طالب في السنة النهائية بكلية الآداب في جامعة القاهرة، أحفظ مواعيد عودته كل ليلة، يعود كل يوم في العاشرة والنصف مساءً، عدا الخميس يصل أحيانًا الساعة الثانية فجرًا، كنت أستيقظ قبل الجميع لأراه منطلقًا كل صباح للحاق بقطار السادسة. عكس كاميليا، كان طيبًا دمثًا، بنظارة طبية، وشعر خفيف على مقدمة رأسه.

يعشق أخته ويصحبها إلى كل مكان، يقفان معًا مساء الجمعة في الشرفة للحديث والضحك، لم أكن متأكدة إن كان هو بالفعل أم اسمًا متشابهًا. لكني لم أعرف أحدًا يحمل اسمًا مركبًا غيره. أخفيت الخطاب في الحقيبة وقررت تجاهله.

لكني كنت أقرؤه كل يوم، أفتحه في فراشي في الظلام، وأعيد قراءة كلماته التي حفظتها، لم أعد أنام، أسهر في الشرفة كل ليلة، كان يعود من الكلية فلا ينام هو الآخر، أراه في الظلام جالسًا على وسادة على الأرض، يدخن السجائر ويرمق السماء، لا ينظر إليَّ، لكنني شعرت ببعض اللمحات المختلسة، ووقعت في الحب.

يوم الجمعة، فكرت في التراجع عن قراري الذي أخذته بالتجاهل، والذهاب إلى الميعاد، كنت خائفة من أن يراني أحد، وشعرت أن الجميع يعلمون ما أفكر فيه. فكرت أنني دائمًا ما أشيد بالمحاولة والإصرار، وبذل الجهد من أجل الحصول على السعادة، هدأت نفسي بأن ناصر ينتظرني، وأنني رأيته بالفعل يغادر قبل دقائق، وشعرت بالذنب من كوني أتخلى عنه.

المسافة من البيت إلى فندق عرفة صغيرة، لكن قدميّ المتثاقلتيْن

المرتعشتيْن صوراها لي وكأنها أميال، ارتديت بنطلونًا من الجينز وبلوفرًا ثقيلًا، تشبثت بحقيبتي وببعض الأوراق التي ادعيت بأنني ذاهبة لتصويرها.

عند الفندق لم يكن هناك أحد، لا ناصر ولا غيره، الناس جميعًا في الصلاة، والشارع يبدو خاليًا. قررت الانتظار حتى انتهاء الصلاة، ربما فكر في الصلاة في السيد البدوي إلى أن يحين الموعد، وظننت أنني قدمت مبكرة، وأنه قصد لقائي بعد الصلاة وليس أثناءها.

لكن وقوفي طال، بدأت أبدل ثِقْل جسمي على قدميّ، تعرق جسمي رغم البرد، وبدأ المطر في الهطول فوقي، ابتلت ملابسي وشعرت بالخجل والبلاهة وأنا أقف هكذا تحت المطر في انتظار شخصٍ لا أعرف إن كان سيأتي أو لا. للمرة الأولى في حياتي أنظر إلى وجوه الناس من حولي، أتساءل كيف يفكرون فيَّ، ينظر لي الناس بتعجب، يحمر وجهي وأعيد النظر إلى الأرض.

عندما توقفت الأمطار رأيتها قادمة، لم تكن وحدها بل مع عصابتها في الفصل، كنّ يضحكن بهستيريا، وفهمت ما حدث قبل أن ينطقن.

تقترب مني كاميليا، تمسك بذراعي وهي تضحك، تخبرني بأن «عليَّ واحد».

أتمالك أعصابي وأجمد نظرة عيني، أبتسم وأنا أخبرها بأنني كنت أعرف، وأنني أتيت للضحك معهن وملاقاتهن. تنظر إليَّ بعدم تصديق. أخبرها بأنني أعرف خط يدها، ورأيتها واقفة على بُعْدٍ تتابع الصبي وهو يلقي الخطاب في يدي. لم أكن رأيتها ولا أعرف خطها، اندفعت الكلمات وحدها من فمي، كنت أتحدث

بسرعة، وأضحك بصوت عالٍ، ظلت هي تنظر إليَّ بعينين تدمعان من الضحك، ثم خفتت الابتسامة على وجهها، نظرت مباشرة إلى عينيّ، شعرت بنظراتها تخترقني وتكشف كذبي، لكنها سرعان ما عادت إلى طبيعتها، استرخى وجهها وأكملت ضحكها معي. تركت صديقاتها وسارت معي إلى البيت.

لم تعد تتجنبني في الفصل، باتت تتحدث معي أحيانًا، أو تقذفني بالقلم من صفها الأخير على سبيل الدعابة، لم أعرف سر تغيرها، إعجابها بفطنتي وروحي المرحة في التعامل مع المقلب، أو إحساسها ولو قليلًا بالذنب.

أما أنا فكنت أكرهها، أكرهها من قلبي، ولم أستطع قط مسامحتها على ذلك.

الأيام تتبدل، والحياة لا تثبت على حال، عندما قرر ناصر الزواج بي، كانت دوافعه واضحة للجميع؛ لي ولأهلي وللجيران والأقارب، فتاة طيبة مسكينة من بيئة مماثلة، ستكتفي بالعيش في بيت أبيه، بالدخول على عفش قديم، بلا شبكة ضخمة ولا حتى مؤخر كبير.

كنت كذلك، وكانت فكرة خطبتي كأول فتاة في الجيران تستهويني، حتى قبل كاميليا الجميلة، التي التحقت بكلية التربية، بينما اكتفيت أنا بالمعهد العالي للخدمة الاجتماعية في كفر الشيخ.

عرض عليَّ ناصر أن أترك التعليم وأكتفي بالثانوية العامة، لكني أخبرته بأن الدراسة سهلة، وأنني لن أذهب كثيرًا على كل الأحوال. أيدتني كاميليا بحماس، وطلبت مني ألا أتخلى عن دراستي، عرفت بعد ذلك أنها من رشحتني عروسًا لأخيها، وأنها أشادت بي

وبأخلاقي. فهمت سر اختيارها، كانت تريد إذلالي بالعمل في بيتهم، تختار جارية لتتدلل هي، ترتاح من العناية بأبيها وشقيقها، وتتفرغ لأحلامها بضمير مستريح، ورغم علمي بمكرها، فإنني أبديت لها امتناني، وأظهرت لها الود.

تمَّ الزواج سريعًا، ومع بداية الدراسة كنت قد انتقلت إلى بيت ناصر وأبيه، أتنفس كلما غادرت البيت للكلية، وأختنق كلما عدتُ في نهاية اليوم.

كانت تزداد ثقة وجمالًا، لا تتوقف عن المشاريع والحديث عن طموحاتها وأحلامها، غرفتها أقرب لمخزن أو خرابة كبيرة، الأوراق مبعثرة في كل مكان، إسكتشات ولوحات وكتب وملابس. في البداية أعلنت أنها تحب الرسم، يطاوعها أبوها في كل ما تريده، يشتري لها الألوان واللوحات، وتقف هي في أيّ مكان، في الصالة أو الشرفة أو الطرقة غير مهتمة إن كنت قد قمت بتنظيفه منذ قليل، فتنثر ألوانها وأوراقها، ثم أنظف وراءها من جديد.

ثم التحقت بكورس للتصوير الفوتوغرافي في قصر الثقافة، اشترى لها حماي كاميرا ثمينة تشجيعًا لها. ظلت تلتقط لنا الصور طوال الوقت، تعلمت حتى تحميضها بنفسها في هذا الكورس. صارت ترسم وتصور، يتفاخر بها أبوها في كل المناسبات، وبدا له أنها تملك كل شيء لسلب إعجاب الجميع.

أكره هذا الدلال الماسخ، وأعلم نهايته. كنت أنتظر انتهاءها من الكلية، وفكرت أنها بالتأكيد سينتهي بها الحال مثلنا جميعًا، معلمة في مدرسة أو زوجة وربة بيت.

لكن كاميليا لا تتوقف، طموحها الكبير يدهشني، وقدرتها على الحصول على ما تريده يزيد عصبيتي. في عامها الأخير في الجامعة، بدأت بالعمل في مجلة شهيرة؛ مجلتي المفضلة التي نشتريها كل أسبوع، وبات اسمها يطاردني في كل شيء، تحتل حتى الأشياء التي أحب، لا مفر ولا مهرب من وجودها اللزج.

كان أبوها فخورًا أكثر حتى من فخره بالحصول على حفيدة، اعتقدت أن إنجابي سيغير من وضعي، وأنني سأحظى بامتيازات الجد السعيد بسلالته، لكن هذا لم يكن، كان يدللك ويساعدني في العناية بك، لكن فخره بكاميليا كان يطغى على كل شيء، ينسى العالم عندما تعود يوم الخميس من اجتماع الجريدة، يظل جالسًا إلى جوارها، يستمع إلى ما فعلته، ويشاهد الصور التي التقطتها والمقالات التي كتبتها.

تمنيت لو تتزوج وتبتعد، تمنيت حتى لو نجحت أكثر وانتقلت إلى القاهرة بشكل نهائي، كنت أدعو لها بصدق أن تتعين في المجلة، وتعمل بدوام كامل؛ لترحل عني، وتختفي. سأتوقف عن قراءة المجلة، وأتوقف عن التطلع لدقائق إلى اسمها، سأصنع تورتة كبيرة للاحتفال بها، وأحمّلها بوجبات مجمدة معها عند الرحيل.

لكنها لم ترحل، تخرجت في الكلية وباتت موجودة أكثر. تسافر لحضور اجتماع المجلة كل أسبوع، وتعود في نفس اليوم. تزداد جمالًا، وتقربًا من أبيها. لكنها تباعدت تمامًا عن ناصر، توقفا عن الجلوس معًا في الشرفة، وحتى الحديث الطبيعي المعتاد. صفعها مرة على وجهها عندما ردت عليه بصفاقة، كانت وقحة جدًّا، كان يطالبها بالتحشم في ملابسها، والانتباه إلى تصرفاتها، وكانت تتأخر

في العودة من القاهرة، ولا تبالي بكلامه. اتهمته بأنه يغار من نجاحها، لم يكن كذلك، كان يخاف عليها ومن خروجها وسفرها المستمر. نحن نعيش في بلد صغير والناس لا تتوقف عن الكلام.

أبوكِ كان على حق في كل كلمة، بالطبع لم تعره انتباهًا لا هي ولا جدكِ، هذه آخرة الدلال والدلع؛ لهذا كان شديدًا معكِ ومع أختكِ، ماذا كنت تريدين؟ أن يترك لكما الحبل على الغارب مثلما فعل جدكِ مع عمتكِ، أنتِ كنتِ صغيرة ولم تدركي ما حدث، لكنكِ كبرتِ وصار لزامًا علينا أن تعرفي الحقيقة، كانت أيامًا عصيبة عليَّ وعلى أبيكِ، مرضه وتعبه وكل شيء بسبب ما حدث، وأزمتكِ أنتِ أيضًا وما تقولينه الآن بسبب عمتكِ أيضًا وليس بسبب أبيكِ.

كانت عمتكِ تسحب الهاتف لغرفتها في الصباح عند ذهاب أخيها إلى العمل، ونوم حماي، وتتحدث لدقائق، عرفت أنها تطلب رقمًا مباشرًا، ربما هي أمور خاصة بالعمل، لكن سعادتها الغامرة بعد الخروج من الغرفة، وحرصها على عدم إصدار صوت، كانا يوحيان لي بالكثير.

كان حماي يسعى لتعيينها في التربية والتعليم رغم رفضها، أخبرها بأن العمل الحكومي يضمن لها عيشًا كريمًا، وأنها لا بد أن تفكر في مستقبلها البعيد.

حاولت أن تشرح له بأنها تسير على الخطوات الصحيحة، وأنها لن تتمكن من السفر إلى الجريدة لو تمَّ تعيينها، لكنه أخبرها بأنها قادرة دائمًا على أخذ إجازات، أو الالتفاف على الحضور.

لم تهتم كاميليا كثيرًا، وظلت على وضعها، تسافر مرة أو مرتين

في الأسبوع، وتعود بتحقيق جديد، أو بسعادة لا توصف، كانت تبدو كما لو أنها تسير على السماء، وأيقنت من أنها في علاقة عاطفية.

حاولت استدراجها في الحديث لكنها لم تلِن، كانت تحافظ على الأمر وكأنه لؤلؤة في صدفة، تحكي أمورًا عادية تحدث في المجلة، أو مواقف مضحكة عند ذهابها لتصوير النجمات مع الصحفيات، استهواني هذا العالم وأحببت النميمة، وزادت جلساتنا معًا في الشرفة. وشعرت بأنها بدأت تستأمنني على بعض أسرارها.

ذات يوم، عادت كاميليا إلى البيت صامتة، لم تكن كعادتها متوهجة بعينين لامعتين، دخلت إلى غرفتها فورًا، فتتبعتها، غيرت ملابسها أمامي، وأنت تلعبين بجانبنا، كنت حاملًا للمرة الثانية، وكانت مشاعري مضطربة، لم أعد أدرك إن كنت أحبها أو أكرهها، هل أنا قلقة عليها فعلًا، أم أنني فقط أنتظر سقوطها.

هذه المرة بدون حتى أن أسألها، حكت لي كاميليا كل شيء، عن علاقتها برسام في القاهرة، قابلته عند تغطيتها لمعرضه في دار الأوبرا، أخبرتني أنها تحبه جدًّا رغم كونه متزوجًا، وأنها تحملت الكثير من أجل استمرار قصتهما السرية. لكنه اليوم صارحها بعدم قدرته على الاستمرار، كان يشعر بالقلق طيلة الوقت، وأنه غير قادر على ضمان أيّ شيء، بعد عام كامل يخبرها بذلك، وبدا لها أنها غير قادرة على العيش بدونه.

لم تكن تبكي، لكنها كانت تنظر إلى اللا شيء، عيناها مضطربتان، وملامحها باهتة، لم أرها قط بهذا الضعف، وللحظة شعرت بأنها مسكينة، لكنني لم أتفهم رغبتها في سرقة رجل من زوجته، وشعرت

بأنها لا تزال كما هي، شريرة وسوداء من الداخل، تختفي تحت هالة من المسكنة والضعف.

لم أعطِها رأيًا، اكتفيت بالتربيت على كتفها، وأخبرتها بأنها قادرة على عيش حياتها بدون أحد، وأنها ستجد من هو أفضل، وتتزوج ويصبح لديها أطفال. كانت تهز رأسها وكأنها تعلم أنني لن أفهمها، ولم أكن قادرة على النقاش حول أمر لا أستوعبه.

بعد اعترافها، لم أستطع التفكير سوى في هذه القصة، أحاول الانشغال بأمور أخرى، لكنني أفكر في زوجته المسكينة التي لا تعرف شيئًا، وتخيلت أن أخرى تحاول الاستيلاء على ناصر ببساطة، لمجرد أنها جميلة ومدللة، وتعرف أنها قادرة على أخذ كل شيء.

كانت أعصابي تغلي، بالذات عندما سافرت مرة أخرى وعادت بنفس السعادة السابقة، أيقنت أنهما قد تصالحا، وأنه ربما يترك زوجته من أجل هذه العاهرة، «خرابة بيوت»، أقولها لنفسي وأنا أجزّ على أسناني، تريد كل شيء، لا تطيق رؤية غيرها ينعم بالسعادة والاستقرار.

بمَ يفيد الجمال، ولا أحد يحاول حتى التقدم لها؟ كان الرجال في هذه المدينة الصغيرة إما يشعرون بأنها أكبر من أحلامهم، وإما يقلقون من تحررها الزائد وسفرها المستمر، الرجال هنا لا يريدون امرأة تقودهم، وهم في ذلك محقون.

من يمكنه تحملها ليومين؟ لولا أن هذين أبوها وأخوها لما تحملاها. لم تستطع إيجاد زوج، فذهبت تطارد أزواج الأخريات.

كنت أحلم أن تكتشف زوجة الرجل ما يحدث، وبدأت في محاولة

استدراجها لمعرفة اسمه، لم تعد إلى الحديث معي عن أمورها الشخصية وكأنها أدركت خطأها، رغم كل محاولاتي للتودد والاقتراب.

ربما كانت تشعر بإحساسي الحقيقي، ربما يظهر في عيني دون أن أدري، أو أنها تعتقد بأن الجميع يغارون منها؛ لأنها الأميرة المتوّجة على العالم.

اعتدت تفتيش غرفتها في كل مرة تغادر فيها إلى القاهرة، كنت أبحث عن أيّ خيط؛ صورة أو اسم أو بطاقة، لم أجد شيئًا، سوى رسمة كاريكاتورية لها، مع توقيع بالاسم الأول.

أخرجت الأعداد القديمة من المجلة، وراجعت كل مواضيعها، كان هناك تحقيق واحد عن معرض فني في دار الأوبرا، وكان اسم الفنان موجودًا، ومطابقًا للرسمة التي وجدتها.

الآن أملك اسمه الكامل، لم أعرف ما الذي يمكنني أن أفعله به. هل أسافر إلى القاهرة بحثًا عن بيته؟ كيف أفعلها ولم أغادر هذه المدينة قط؟ أخبر أباها؟ أخبر ناصر؟

لن يصدقني أحد، وستعلم أنني وشيت بها، وسينقلب الجميع ضدي بمجرد أن تبكي ولو قليلًا. حاولت تناسي الأمر، لكنها في كل مرة تعود فيها إلى المنزل بوجه مشرق وسعادة واضحة، كل مرة ينشر لها تحقيق أو تحقق إنجازًا، كنت أتلاشى من الداخل، أكاد أسمع دقات قلبي في أذني، والضغط على رأسي يزداد فلا أستطيع رفع عيني إليها.

الأيام تمضي، والولادة تشغلني عن كل شيء، كان عليَّ مراعاة طفلة ورضيعة وبيت بكامله، بينما هي تجلس بلا عمل، تقرأ كتابًا أو ترسم لوحة، أو تتحدث في التلفون صباحًا. كان ناصر قد اشترى

هاتفًا جديدًا بأزرار وشاشة تظهر الأرقام عند الضغط عليها. جاءتني الفكرة بمجرد رؤيته، لكنني كنت في مزاج لا يسمح بالتنفيذ، ولم أشعر حتى برغبة حقيقية في فعل شيء، لكني وجدت نفسي ذات يوم أتنصت على مكالمة لها من التلفون الآخر الذي نقله ناصر إلى غرفتنا.

ما سمعته كان مخيفًا، كانا يتحدثان بطريقة لا أقوى حتى على التفكير بها، لم أتحدث بها مع زوجي نفسه من قبل، هذه الحميمية لا تعني سوى شيء واحد. وأيقنت أن جرأة كاميليا وغرورها جعلاها تعتقد أنها محصنة، وأنها قادرة على فعل ما يحلو لها، وأنها تذهب إلى هذا الرسام في مرسمه، وفكرت في وقع هذا على أبيها وأخيها، والفضيحة الكبرى التي ستنال من العائلة ومن طفلتي.

اسمعي، هذه الأمور لم أخبر بها أيّ مخلوق من قبل، إياكِ أن تفكري حتى بنقلها لأبيكِ، سيموت فورًا ولن تستفيدي شيئًا، أنا أخبركِ فقط لتعلمي أنني كنت أعرف بأن هذا اليوم سيجيء؛ لتعلمي أنني بذلت كل جهدي لمنعها ولم أستطع، تأخرت للأسف لكني وقتها لم أكن أعلم ذلك، كنت أفكر أن عمتكِ ستفضحنا جميعًا، لن يتزوجكما أحد أنتِ وشقيقتكِ، هذه الأمور لا يمكن إخفاؤها، إن لم أوقفها الآن فلن تتوقف، ستتنقل من رجل لآخر، وربما تحمل فتكبر الفضيحة.

عادت الخطة من جديد إلى رأسي، انتظرت اللحظة المناسبة التي تعيد فيها الهاتف إلى الصالة، ثم تتسحب من جديد إلى غرفتها أو تدخل الحمام. انتظرت أيامًا طويلة لأنها كانت دائمًا ما تعيده ثم تجلس لمشاهدة التلفزيون، أو الوقوف في الشرفة. أحيانًا كانت تعود

إلى غرفتها، فأضغط على زر إعادة الرقم، لأكتشف أنها ضغطت بعد إنهاء مكالمتها على أيّ رقم عشوائي لا يبدأ بمفتاح القاهرة. كانت ذكية لكن مَن منا لا يسهو ولو مرة؟

ثم جاء اليوم المناسب الذي تركت فيه الهاتف ودخلت لتستحم، كنت ممسكة بورقة وقلم، ضغطت زر إعادة طلب المكالمة، فوجدت الرقم كاملًا أمامي بكود القاهرة، سجلته فورًا، لم أهتم إن كان الجرس دق أو لم يدق، أغلقت السماعة، واحتفظت بالرقم للحظة المناسبة.

كان نفسي أهدأ، وعلمت أنني أقوى، حتى تعاملي مع الجميع كان هادئًا أكثر من اللازم، أبتسم بسعادة حقيقية، وأدلل كاميليا معهم، حتى إنني صنعت لها الكريم كراميل الذي تحبه.

عندما سافرت في نهاية الأسبوع، اتصلت بالرقم، كنت أنتظر سماع صوت امرأة، في كل مرة كان يرد عليَّ رجل أو طفل، كنت أغلق الهاتف، إلى أن جاء اليوم الذي ردت فيه عليَّ سيدة ناعسة، يبدو أنها لم تستيقظ بعد.

أخبرتها بأن زوجها يخونها مع صحفية تذهب إلى مرسمه، وأن عليها أن تفتح عينيها، وتتابع زوجها وما يفعله، وأن عليها الاتصال بوالد هذه الفتاة وإخباره بما تفعله ابنته، أخبرتها أنه غالبًا سيقتلها لو عرف، وبهذا تضمن ابتعادها عن زوجها، وتحافظ على بيتها.

لم ترد عليَّ، لم أسمع سوى صوت أنفاسها متلاحقة وثقيلة، أمليت عليها رقم بيتنا مرتين، ثم أغلقت الهاتف بهدوء، وعدت إلى المطبخ لأستكمل طعام الغداء.

لسعة من الندم اعترتني، وشعرت بقشعريرة تغمر ظهري، وبصدري ينطبق، لماذا فعلت ذلك؟ لماذا تدخلت؟ أخبرتني من قبل بأنها لن تعيش من دونه، فهل كنت فعلًا أتمنى موتها إلى هذه الدرجة؟ هل أنا قاسية فعلًا، أم أنني فقط أدافع عن العدل، وعن الأخلاق، وعن الزوجة المسكينة التي يمكن أن أكون في موضعها؟ لست شريرة، وهي من يجب أن تشعر بالذنب.

كانت الأيام تمضي، ولا شيء يحدث، تمنيت لو أن السيدة نسيت ما أخبرتها به، وأنها اعتبرتها مجرد معاكسة هاتفية من امرأة مجنونة. أو أنها لم تتمكن من تدوين رقم البيت خلفي. لكن ما حدث بعد ذلك جعلني أدرك أنها لم تأخذ الموضوع باستخفاف، وأنها قررت الدفاع عن بيتها.

عندما حبس حماي كاميليا في غرفتها، كان الإحساس بالذنب ينهش فيَّ ببطء، لم أعد قادرة على النوم ولا الكلام، أتسلل إلى غرفتها لأتابع تنفسها وأتأكد من أنها لا تزال على قيد الحياة، أدخل لها الطعام، وأحيانًا أطعمها بالقوة. كان أخوها يطالبني بتركها؛ علها تموت وينتهي الأمر، لكن في عينيه كان الرجاء واضحًا، كان يقول ما يجب عليه أن يقوله، وطبقة الدموع تطالبني بعدم التخلي عنها.

في هذه اللحظات شعرت بشفقة حقيقية عليها، كانت مشاعري قوية لدرجة أنها كانت تؤذيني، بين إحساسي بالانتصار، ولذتي بانكسارها التام أمامي، ويقيني بأنها حصدت ما تستحقه، وبين حزني على حال زوجي وأبيه، ورعبي من صمتها التام، وتحولها شيئًا فشيئًا إلى هيكل عظمي بعينين واسعتين.

كان الجميع يتساءل عن اختفائها في المدرسة، تأتي بعض الفتيات لزيارتها، ترفض مقابلة أحد، يجلس حماي معهن يخبرهن بأنها مريضة جدًّا، وينهض ويتركني معهن، معظمهن كن معي في المدرسة، يحاولن استمالتي إلى الكلام، أرسم تعبير الحزن على وجهي، ألمح تلميحات بسيطة، أتحدث عن جرأتها وتحررها، وأن عمي لم يعد يعجبه سفرها المتكرر، يزداد فضول البنات، ويطالبن بالمزيد، أقول: الله ستار.

يسألنني إن كانت على علاقة بأحدهم، لا أرد بالإيجاب ولا بالسلب، تسألني إحداهن إن كان عمي قد رآها مع رجل. لا أرد بالإيجاب ولا بالرفض، حتى أيقنّ بما حدث.

يسألني ناصر إن كنت أخبرت أحدًا. أنفي نفيًا قاطعًا، أبكي من قسوة اتهامه وأقسم بأنني لم أفشِ سرًّا من بيتي. أعتقد أن الممرضة التي جلبها أبي قد أخبرت الجميع، تشاجر معه وأخبره بأنه أخطأ خطأً فادحًا وفضحنا جميعًا. كانت عصبية ناصر تزداد، والهم يبدو واضحًا على وجهه. وللحظة شعرت بأنه سيعود للانحياز إلى صف كاميليا، بالذات مع مرض أبيه وتهالكه على مقعده في الصالة طوال اليوم.

كان لا بد أن أفعل شيئًا، تذكرت أن ناصر أخبرني عن زميله الذي طلب منه يد كاميليا، وأنه رجل محترم وطيب. ليلتها انتظرت ناصر حتى عودته متأخرًا، تعطرت وارتديت أفضل ملابس النوم، كان مزاجه جيدًا، وبدا وكأنه نسي مشاكل كاميليا والبيت كله.

ذكرته بصديقه ذاك، وسألته لِمَ لا يسأله إن كان لا يزال يريد الزواج من شقيقته.

ـ تريدينني أن أدلل على أختي؟ أشحت لها عريسًا؟

ـ وماذا في ذلك؟ الرجل محترم وصديقك، النبي كان يخطب لبناته.

ناقشته طوال الليل، بالغت في تدليله وإقناعه بأنني أحاول مساعدة أخته، وأن أباه سيموت لو لم نفعل شيئًا يخرجنا من هذه الورطة.

تحمس عمي عندما أخبره ناصر بالفكرة، أشرق وجهه واستعاد جزءًا من نشاطه، تساءل إن كان الفتى قد سمع شيئًا. أخبره ناصر أن لا أحد يجرؤ على الحديث عن شقيقته، وأنه سيقتل أيّ شخص يفعل.

كان يتحدث بلا اقتناع حقيقي، لكنه كان يأمل لو لم يكن جمال قد سمع شيئًا، راهن على صداقتهما وخجل الأخير، وقرر مفاتحته في الموضوع.

على الرغم من أن الفكرة فكرتي، فإنني اندهشت لموافقة جمال السريعة، تعجبت من حظ كاميليا الذي لا يتركها، وشعرت ببعض الضيق بسبب ظلم الكون. رغم كل ما تفعله، رغم قسوتها واستهتارها ودلعها وعدم تحملها للمسئولية، فإنها دائمًا ما تجد من ينقذها ويخرجها من ورطاتها.

لكني تخلصت من ضيقي بسرعة، غلبتني طيبة قلبي وتحمست لاصطحاب كاميليا في المشاوير لشراء جهاز العروس بسعادة حقيقية، كانت هذه الفترة أسعد أيام حياتي، ثبتُّ سلطتي على البيت كله، وبت صاحبة الكلمة الأخيرة، عمي بات كالجثة الهامدة، وزوجي لم يعد قادرًا على رفع عينيه لا في وجهي ولا وجه أخته، التي لم تعد تخرج من غرفتها إلا نادرًا.

جمال طيب ومحترم، يأتي نهاية كل أسبوع للجلوس مع خطيبته، كان يرد عليَّ باحترام شديد، ويشتري الحلوى واللعب لكِ

ولشقيقتك، وللحظة شعرت بالشفقة عليه، ومن هذه التدبيسة التي أوقعته فيها.

شرها لا ينتهي حتى بانكسارها، وسوادها سيغطي حياة رجل لا ذنب له، لولا أخوها لكنت طلبت منه أن يهرب ولا يعود.

لكني تماسكت حتى يوم الزفاف، الذي كان الأجمل في حياتي، السعادة بادية على وجهي لدرجة أشعرت ناصر بقيمتي، أثنى على جمالي ليلتها، وأخبرني بأنني جوهرة حقيقية. شعرت بالامتنان والحب، وأنني بالفعل أنقذت عائلتي من خطر العقربة الجميلة.

في اليوم الذي تلا رحيل كاميليا إلى شقة الزوجية، أعددت غرفتها لتكون غرفة لطفلتيَّ، كنت في طريقي للتخلص من أوراقها وأدواتها، لكن أباها صمم على الاحتفاظ بها، كدستها في الشرفة الصغيرة الخلفية بجوار الغرفة، وتجاهلت الأمر رغم رغبتي الشديدة في التخلص من كل أثر يخصها هنا.

لم تمنحني كاميليا فترة كافية لأستشعر الراحة، كانت كأنها تتعمد إغاظتي، بالقدوم إلى بيتي كل يومين، اعتادت المجيء يومًا واحدًا نهاية الأسبوع، ثم بدأت في البيات أحيانًا في غرفتها القديمة إلى جوارك، وبعد موت حميي، صارت متواجدة معظم الوقت، تدخل البيت بلا استئذان بمفتاحها الذي لم تتخلَّ عنه، رغم أن كل من لها في هذا البيت قد ذهب.

لم تحترم كوني السيدة الجديدة لهذا المنزل، ربما كانت غاضبة من استيلاء أخيها على الشقة، لم أنوِ أكل حقها في إرث والدها، وعرضت عليهما بيع هذه الشقة، وتقسيم ثمنها كما يحتم الشرع،

لكن ناصر رفض تمامًا، وأكد أن كاميليا لا تعنيها الأموال، وأنها لن تتخلى أبدًا عن البيت الذي يحمل ذكرياتهما معًا.

كانت تتغيّر، تزداد بدانة ويسمر وجهها، ترتدي عبايات واسعة متسخة، وحجابًا طويلًا، وبيدها حقيبة بنية دائمة، بينما حافظت أنا على وزني وشكلي، كنت أجمل، بحجابي الذي أعقده باهتمام، وبملابس زاهية الألوان، كنت وشقيقتك نظيفتين وجميلتين، وبيتي منظمًا ومرتبًا. وبدا لي أن الحياة أخيرًا منحتني ما أستحق، ومنحتها ما تستحق.

لم أشعر بالشماتة، وحاولت إسداء النصح لها، ومطالبتها بالاهتمام بنفسها حتى لا يهرب منها زوجها الطيب، لكنها لم تستمع إليَّ، تأتي لتجلس في غرفتها القديمة، أو تخرج إلى الشرفة الخلفية، ترقد على أرضها ناظرة إلى السماء، أو تجلس على مكتبها القديم تكتب لساعات.

عندما منعها أبوكِ عن القدوم إلى منزلنا، لم يخبرني بالسبب، لكنه طلب مني أن أذهب أنا لزيارتها؛ لأنها لن تتحمل البعد عنكِ، كانت تحبكِ فعلًا؛ ربما لأنكِ تشبهينها، حتى في الاسم الذي أجبرني أبوكِ عليه. لم أتمكن من الرفض، وشعرت أن من واجبي الوقوف إلى جوارها، اعتدت الذهاب إلى البيت المظلم بهوائه الراكد، كان قلبي ينقبض من شقة عمتكِ الصغيرة غير المنظمة، ومن الفوضى في كل مكان، والمطبخ البارد الذي لا يمس، هذا بيت بلا روح، وبلا حياة؛ ليس فقط لأنه بلا أطفال، بل هو أيضًا بلا حب.

أحمل لها طعامًا لا تمسه، لا هي ولا جمال، الذي لم يعد يصعد من شقة الدروس إلا إلى النوم، بينما تجلس هي على جهاز الكمبيوتر في غرفتها، لا تخرج سوى للجلوس معنا.

تضعكِ على ساقها، وتنظر لكِ طويلًا، كنت أقرأ المعوذتين في سري قلقًا عليكِ، أريد أن يمر الوقت سريعًا ونذهب، هل أخبرتكِ كم كان وجودها ثقيلًا؟ في هذه الفترة كان أكثر من ذلك، كان مرعبًا، وكأنه مؤقت، وكأنها ضيفة على الحياة، أو طيف عابر.

تطلب مني كل مرة أن أتحدث مع ناصر لكي يسامحها، ويسمح لها بزيارتنا في البيت. أهز رأسي بالموافقة، وأحدثه فعلًا عن كل مرة، لكنه ولأول مرة كان عنيدًا جدًّا، أخبرني أن أتوقف عن الكلام في هذا الموضوع، وأن بيتها أولى بها. أحيانًا كان يزيد كلمتين بأنه يفعل هذا من أجلها؛ ومن أجل الحفاظ على بيتها. كان صوته مهتزًّا وكأنه غير مقتنع بما يقول، لكنه لم يغير موقفه ولم يرجع في كلامه.

بعد شهور، شعرت بالفزع من شكلها، كانت تذبل فعلًا، فقدت وزنها ونحل وجهها، كانت عيناها غائرتين، وشعرت بأن الموت يحوم حولها، تفرغ من الحياة وكأن روحها في هذا البيت، شعرت بالقلق، وأخبرته بأن أخته ليست على ما يرام، وفي هذه الليلة، حضرت إلى منزلنا، كان الوقت متأخرًا، وطرقاتها على الباب هادئة لا توحي بشيء. جاءت بلا حقائب ولا حتى حقيبة يدها، لم تلتفت إليَّ، احتضنت شقيقها طويلًا دونما كلام، ثم توجهت فورًا إلى غرفتها. نامت وكأنها لم تنم منذ سنين. كانت هذه المرة الأخيرة التي أراها فيها، في الصباح كانت قد اختفت، آثارها متبقية في الحمام، وعبايتها ملقاة على السرير، جرت حقيبة ملابسها القديمة من الشرفة إلى الداخل، ارتدت فستانًا قديمًا من فساتينها ورحلت، ذابت في المرآة كما كنت تقولين.

قضى ناصر شهورًا طويلة في البحث عنها، كل عاملي المشارح

في مصر باتوا أصدقاءه، يحدثونه كلما أتتهم جثة مجهولة الهوية، فيهرع إليهم. يفتحون له الثلاجات، يتطلع إلى الجثث ويعود خائبًا. ينام على ظهره في غرفتنا، يحدق في السقف بالساعات، يقول إنه لا يريد سوى دفنها إلى جوار أبيها وأمها، يريدها أن تشعر بالونس معهما.

خيم الموت على البيت، وبدا أن ناصر نفسه ينجذب نحو الهاوية. كثرة رؤية الموت تُميت، وحزنه على شقيقته لم يعد محتملًا. تمنيت لو يتوقف عن ذهابه إلى المشارح، لو يستوعب أنها ذهبت وانتهى الأمر، بماذا سيفيد دفنها إلى جوار أبيها وأمها أو دفنها في أيّ مكان آخر؟ هذا جسم بالٍ لا يعني شيئًا، بالتأكيد كلهم الآن في مكان أفضل، ربما يتطلعون إلينا من علٍ ويشفقون على حالنا، أخبرته بأنها لو كانت هنا، لما سمحت له قط أن يفني نفسه خلف خيوط واهية، وأنها من أخذت قرارها بالرحيل، لم تخبره ولم تهتم بحزنه، زوجها نفسه استكمل حياته، تزوج وأنجب، ونسيها.

عمتكِ قاتلة، قتلت أمها وأباها وستقتل أخاها وتقتلكِ، لم تبالِ إلا بنفسها، كانت تأخذ قراراتها وكأنها تعيش في هذا العالم وحيدة، ربما تتساءلين إن كنت أشعر بالذنب تجاهها، لماذا؟ كانت ظالمة وقاسية، لم تبالِ بأحد إلا نفسها.

هذا البيت يأكل ساكنيه، أنتِ لم تعرفي أباك شابًّا، كان فتيًّا لا يقف أمامه شيء، ضحى بحياته من أجلكِ ومن أجل شقيقتكِ، كان بإمكانه أن يصبح شيئًا عظيمًا، لكنه قبل بالبقاء هنا ليعتني بأبيه المريض وشقيقته المستهترة، ثم تربيتكِ أنتِ وشقيقتكِ، فكيف يمكن أن تصدقي عليه كلمة؟

هذه صورتي مع عمتكِ في حفل خطبتي، نقف ملتصقتين،

تطوقني بيدها، وتبتسم، أنا أيضًا أبتسم وأبادلها حضنًا بحضن، لا تصدقي الصور يا ابنتي، لم تكن تطيقني، كانت سعيدة فقط بحصولها على جارية، لكن الحياة عادلة، وتعرف نوايا كل شخص، وتمنحه ما يستحق فعلًا، إن عاجلًا أو آجلًا.

عندما تنظرين إلى هذه الصورة، سيأخذكِ جمالها ونور وجهها الساطع، لكنكِ لن تري سواد قلبها وغرورها وكبرها، ربما لم تكوني لتلاحظيني لو لم أكن أمكِ، مجرد بنت عادية نحيفة لا تخطف النظر، لكن لو رأيتنا بعد ذلك، لحصل العكس، كنتِ سترين سيدة ناجحة مستقرة تملك بيتًا وعائلة، وامرأة ضائعة تختفي أسفل الملابس الواسعة، لا تملك شيئًا.

لا تصدقي الصور ولا تأخذي الحياة من على السطح، خلف كل صورة قصة لم تروَ، وصراعات لا تنتهي، الصورة ثابتة وليست سيلًا متدفقًا من الأحداث مثل المسلسلات في التلفزيون؛ لذا فهي كاذبة، تمنحنا لمحة واحدة عن الواقع، إن كنتِ تريدين الحقيقة، فخذي عشرات الصور في دقيقة واحدة، وشاهدي تبدل الابتسامة لحزن، والنور إلى ظلام، والحب إلى كراهية، والقرب إلى البعد.

١٠

العالم يدور بها. ضوء غائم يدخل من الشرفة ويصل بصعوبة إلى الصالة التي تبدو معتمة، صدى صوت أمها يتردد في أعماقها، وعمتها تزداد بهاء بعد كل حكاية من حكاياتهم عنها. ودت لو تتسلل إلى أعماق عمتها، أن تدخل تحت جلدها لتعرف ما كان يدور في قلبها وعقلها، تستعيد ما قالته أمها وهي جالسة في مكانها لا تتحرك لساعات طويلة، ترى وجه أمها مشوهًا، قسوة غريبة طفحت على هذا الوجه الذي رأته طيبًا طوال عمرها، كيف تتغير ملامح الناس عندما يكشفون عن أعماق روحهم، عن مكنون قلوبهم؟

ظلت حيرة عميقة تؤرقها لعدة أيام: كيف يمكن لشخص أن يغيّر حياة شخص آخر بهذه البساطة ودون ندم؟ الغريب أن أمها قصت عليها كل شيء وكأنها تقنعها بصواب موقفها، رغم أنها كانت الجانية في نظرها.

لم تستطع النطق، تهز رأسها بينما تحكي لها التفاصيل التي حدثت، تتظاهر بمساعدتها في المطبخ، أو الجلوس بجوارها في الشرفة، تعد لها كوب الشاي وتجلس أمامها تسمع باقي الحكاية، كانت تعيد وتزيد في التفاصيل، تؤكد أجزاء بعينها وتمر بسرعة على أجزاء أخرى. تحاول بكل جهدها تشويه صورة العمة بينما في حقيقة الأمر، كانت تزيدها نقاءً.

هل الحب جريمة؟ ظلت تفكر في إجابة طوال الأيام التالية، وهي

عائدة من المدرسة، أو وهي جالسة في الشرفة الصغيرة وحدها بعد العصر تتظاهر بالمذاكرة، تشعر وكأن هذا ما كان ينقصها لتتمكن من السيطرة على حياتها. العالم يبدو غليظًا، كل يوم تختنق أكثر، كلما استعادت تفصيلًا حكته أمها، انقبض قلبها. تحاول التظاهر بأن كل شيء على ما يرام. تحاول اجتياز امتحانات الصف الثاني الثانوي كما وعدت أباها ليوافق على إعلان خطبتها على محمد، وتقريب حلمها بمغادرة هذا البيت.

الغريب أن أمها نطقت بالكلمة التي كانت تطن في روحها، حين قالت ذات صباح وبوضوح شديد: «هذا البيت يأكل ساكنيه»، وهي تشعر بأنها تتآكل كل يوم حية. الخواء يتزايد في أعماقها، حتى إنها تشعر بصدى دقات قلبها يتردد بصوت عالٍ في جنبات جسمها كلها وصولًا لأذنيها.

أحيانًا ينتابها الفزع، وتشعر بأنها غير مستعدة للزواج، وأنها لا تعرف إن كانت تحب محمد فعلًا أم لا، لكنها تعيد التفكير في طرق أخرى للهرب فلا تجد سواه، تعرف ظروفها جيدًا وتدرك أنها لا تملك لا مالًا ولا سكنًا ولا أي شيء، تتمزق بين رغبتها الدائمة، وشعورها بالذنب لاستغلالها الفتى الذي لم يؤذِها بأي شكل، وتراه هي مجرد وسيلة تمكنها من الابتعاد.

مثل الروايات التي كنت أحبها

من أوراق كاميليا عاطف

عندما أرغب في التنفس، أتذكر أول مرة وقعت فيها عيناي عليك. كان لقاؤنا مثل رواية، أقف وحيدة في معرض شبه فارغ من الزوار ظهر يوم ما، ألتقط الصور للوحاتك بفراغ صبر، لم أكن أحب تغطية المعارض الفنية كثيرًا رغم حبي للفن والرسم، كنت أميل لتصوير الحياة الحقيقية، لالتقاط صور الناس في الشوارع، للمباني القديمة، للمترو القادم من النفق المظلم. اعتدت التقاط الصور التي ربما لا تعجب أحدًا، كنت أرى في التفاصيل العادية جمالًا لا يصدق، صورة سيدة خلف زوجها على دراجة بخارية، بينهما طفلان وحقيبتان، صورة صبي يقف أمام ثلاجة الكوكاكولا في شارع جانبي، صورة لفتاة تقف مستندة إلى عمود المترو، وشعرها الغجري يحيط بعينيها الساهمتين.

نفاد صبري تلاشى حين رأيتك، تقترب بابتسامة هادئة. على عكس من رأيتهم مسبقًا من فنانين، كانت عيناك خجلتين، لا ترفعهما في وجهي، نحيلًا وأسمر، في كلامك أثر للهجة صعيدية زائلة، تملك غمازتين وأنفًا طويلًا، تمرر أصابع يدك في شعرك الخشن كل دقيقتين. تسألني عن رأيي في اللوحات، فأجاملك. الحقيقة أنها لم تكن لوحات عظيمة، كانت مجرد انطباعات عامة عن الموضوعات الرائجة، الحارة المصرية، وزينة رمضان، ووجوه لفتيات، كانت بعضًا من الطبيعة الصامتة.

أخبرتك بأنني وددت لو تناولت الحياة الحية الحقيقية، مشاوير الموظفين في الشارع، الزحام أمام مجمع التحرير، فتاة تشير لتاكسي أبيض وأسود، طفلين يشتريان أكواز الذرة.

نظرت إليَّ بدهشة رافعًا حاجبيك، سألتني عن دراستي فأخبرتك أنني لم أدرس الفنون لكني مولعة بها، يومها جلسنا لساعتين نتحدث في كل شيء، في الفن والسينما والتصوير والأدب. أخبرتك بأنني من مدينة طنطا، وأنني لا أطيق العيش خارجها، وعلمت أنك أصلًا من المنيا، وأنك تفتقدها طوال الوقت.

يومها شعرت أنني أريد البقاء معك لوقت أطول، وضحكت من إعجابي السريع بشخص لا أعرفه، عندما غادرتك نفضت عن ذهني الأفكار، وقلت لنفسي إنني مصابة بمراهقة متأخرة، لم أفعلها وأنا في الجامعة، أن أُعجب بشخص في ساعتين. الحقيقة أنني لم أعجب بأحد من قبل، لكنك كنت تملك تلك النظرة الحانية، التي تشعرني بأنك تفهمني فعلًا، وأنك قادر على استشفاف أحزاني، ووحدتي، ورغبتي في الحديث بشكل حقيقي عن نفسي.

في الأيام التالية حاولت نسيانك، كنت أستيقظ من النوم فتظهر صورتك أمام عيني، أغمض عينيَّ في المساء فتنطبع صورتك كالنيجاتيف على ظلام عقلي، أقف في شرفة منزلنا في طنطا أحلم لو ظهرت فجأة أسفلها، أسير في الشارع فأفكر أنك ربما أتيت لتبحث عني.

عندما غادرت مبنى المجلة في طريقي لمحطة القطار بعد الاجتماع، ورأيتك واقفًا على الرصيف المقابل، تفحص بعينيك كل مغادر، عرفت أننا واقعان في الحب.

أفكر في مدى سوء حظي الذي أوقعني في حب رجل غير متاح، لماذا تملك كل المميزات التي طالما حلمت بها وأنت ملك لامرأة أخرى؟ كنت أفكر هل تعرف هي ميزاتك؟ هل تُقدرك كما أفعل، أم أنك بالنسبة لها عاديّ، ومتواجد كحقيقة ثابتة لا يجب أن تحمد الله عليها كل يوم؟

تمسك بيدي فيخدشها خاتم الزواج، أتحاشى الحديث عن حياتك الحقيقية، وأريد أن أعيش في هذا الوهم الجميل لأطول وقت ممكن، نتقابل في محطة القطار، ونجلس لمتابعة الناس على الأرصفة، أو نشرب القهوة في البوفيه المضبب بدخان السجائر، أحيانًا قليلة نسير في شوارع المعادي أو الزمالك، تختار دائمًا الشوارع الفارغة التي لن يقابلك فيها أحد من معارفك، تبدو قلقًا طوال الوقت، وقلقك يعذبني، ويشعرني أنني أتيت لأزيد حياتك تعقيدًا.

عندما أمسكت يدي ورسمت بالقلم الفلوماستر رسومات دقيقة على أظافري؛ فراشة وقلبًا ورأس دب وعصفورًا، شعرت برغبة في البكاء، تشنج أنفي كعادتي عند كبت الدموع، فنظرت لي باستغراب، أخبرتك بمشاعري، وبأنني غير قادرة على الاستمرار في حلم غير مستقر، سينتهي في يوم قريب.

أخبرتك بأن قلقك يعذبني، وشعورك الدائم بالذنب يقبض قلبي، وأنني لا أريد التسبب في كل هذه المشاكل، تستمع إليَّ دون كلام، لا توقفني عن الحديث، طبقة الدموع الرقيقة التي تغلف عينيك تخبرني بأنني على حق، وأنك لن تتمكن أبدًا من فعل شيء، لم تتمكن من مواجهة عائلتك وزوجتك وأطفالك، ولن تستطيع منحي الحياة المستقرة التي أتمناها.

أشعر بالشفقة تجاهك، وأتفهم أن لا شيء بيدك لتفعله. أنا مجرد فتاة أخرى سيئة الحظ، كنت مقتنعة بأن الحياة غير عادلة، وأن لا شيء عظيم يأتي سهلًا.

قلت: لو كان بيدي لاخترتك. لم أتحمل هذه الجملة، كان وقعها مقبضًا على أذني رغم أنها اعتراف حقيقي بحبك، شعرت بالاستحالة تتجسد أمامي، وأنه لا يوجد ولو بصيص أمل. حينها وددت الرحيل فورًا، لكن جسمي كله كان في حالة خمول، وكأنني فقدت عظامي، غير قادرة على النهوض من مقعدي. لا أعرف كم مرَّ من الوقت حتى رحلت، ولا كيف وصلت إلى القطار ولا إلى البيت.

في الأسبوع التالي، أخبرتني بأنك تريدني بأي طريقة، عرضت عليَّ أن نتزوج زواجًا عرفيًّا، وأن نلتقي في مرسمك، شقة صغيرة في شارع الفلكي، استأجرتها تحت هذا المسمى، لكنك في الواقع استأجرتها من أجلنا.

لم أفهم مطلبك في البداية، صورة أبي فقط تحتل تفكيري، واندهاشي من عرضك يزداد مع كل كلمة، أخبرتك أن الحياة المستقرة التي أعنيها لا تعني إتاحة النوم معك بلا شعور بالذنب، بل تعني علاقة علنية أمام الجميع ولو كانت دون زواج.

لكنك لم تستسلم، ظللت تقنعني طوال الوقت، وفي مكالماتنا الهاتفية الصباحية حين تكون زوجتك في عملها وأبي نائمًا، أحيانًا بالمنطق، أحيانًا بالاستجداء، وكثيرًا بالغضب وباتهامي بأنني لا أحبك.

أذكر نبرات صوتك تتحول من الرجاء إلى التفاؤل ثم الغضب

والانهزام، تراني أعقد الأمور بينما بيدنا ابتكار الحلول، والاحتيال على الحياة، وأراك متساهلًا بشكل عجيب، وكأننا نعيش وحدنا، وكأنني أملك رفاهية القرار.

لم أكن أود الاستسلام، لكني انتظرتك طوال ثلاثة أسابيع دون أن تظهر، أحادثك صباحًا فلا تجيب، شعرت وقتها بأنني أموت، وأن حياتي من دونك فارغة، توقف الزمن، واصطبغت الموجودات بالرمادي، لم أستطع التركيز، ولا فهم كلام محدثيّ. وعندما أخذت المترو إلى محطة سعد زغلول، وسرت في الشارع المقابل الفارغ إلى البيت رقم ١٠، علمت بأنني سأجدك تنتظر.

كان المرسم خاليًا إلا من مرتبة قديمة وسبرتاية قهوة، اللوحات متناثرة، وباليتات الألوان جافة، وعلى الحائط رسمة كبيرة لوجهي.

كان وجهك النحيل أكثر نحولًا، وذقنك نابتًا، وشعرك هائشًا، وللمرة الأولى أرى يدك بلا خاتم زواج. عندها انهارت كل دفاعاتي وقناعاتي، واستسلمت لك.

في هذا المرسم، كانت أجمل أيام حياتي، أحوله يومًا بعد يوم إلى بيت حقيقي. أحببت كل ركن فيه، الحمام الصغير، والحوض الصدئ، والمائدة التي وضعنا عليها سخانًا كهربائيًا وبراد شاي وكوبين، نثبت الستائر بمسامير في الحائط، ونلون الجدران معًا بالفُرْشات. بدت حياتك الأخرى بعيدة وواهية، وبدت حياتي الأخرى كمحطة انتظار ليوم لقائك.

عندما أسترجع لحظاتنا معًا، تدهشني كل هذه الحميمية، التوافق التام في كل شيء، كان الكلام سهلًا، والتفاهم حتى بغير كلام. حضنك هو المكان الوحيد الذي أستطيع النوم فيه دون قلق، وقبلاتك

توصلني للنشوة التامة مرات ومرات. كنت ترسم على جسدي بألوان الزيت، أوراق أشجار وزهورًا وشمسًا حول السرة، وأنا أستسلم لفرشاتك، ولا أعبأ بكيفية إزالة هذه الألوان قبل مغادرتي.

لكن ما يدهشني أكثر، هو أننا لا نملك ولو صورة واحدة معًا، كيف لم أفكر في حبس هذه اللحظات بيننا، في تسجيلها وتخليدها؟ كيف لم أصور كل رسمة لك على جسدي، وكل لون منحته لي فأضاء حياتي؟

كيف اعتقدت أن الحياة يمكن أن تسير هكذا؟ وكيف سمحت لنفسي بالنسيان أو التظاهر بذلك؟

كل ما أعرفه اليوم أنني وبعد هذه السنوات، ما أزال أفتقدك، وما أزال غير قادرة على النوم إلا بتخيلك إلى جواري، حاولت أن أكرهك فلم أستطع، أقول لنفسي إنك عدت إلى حياتك الطبيعية بلا قلق، أما أنا فعلقت في حياة ليست حياتي. لكنني أتذكر كل هذه اللحظات بيننا وأشعر بالامتنان لأني عشت حبًّا عظيمًا ورائعًا، غذى قلبي ومنحني القدرة على الطيران ولو لشهور. لم أندم قط على شيء، وبدت حياتي الحالية ثمنًا مناسبًا لإحساسي العميق بالحياة، ووصولي إلى الحقيقة.

١١

عندما ظهرت النتيجة، فوجئت قبل الجميع بالمجموع الجيد الذي حققته، كانت تنظر إلى الأرقام بفرح ودهشة، تعيد حسابها مرة واثنتيْن، ولا تصدق زغاريد أمها، ولا صوت أبيها الذي يتحدث بفخر مع زملائه، يخبرهم بنجاح ابنته ومجموعها.

لكنها لم تتراجع في قرارها، ولم يجرؤ أحد على الاعتراض، اختارت كاميليا إقامة حفل خطبة صغير في البيت، لم يكن أبوها متحمسًا لفكرة الحفل من الأساس، واقترح أن يرتديا الدبلتين في حضور العائلتين وينتهي الأمر، لكنها أصرت على دعوة صديقاتها وبنات العائلة، وأن تؤجر فستانًا وتذهب للكوافير، وأيدتها أمها في كل ما ابتغته. كانت تحاول إرضاءها بأي طريقة منذ جلستهما الأخيرة التي شعرت بعدها بابتعاد ابنتها عنها، ونظراتها المتهمة إليها، رغم ما تحاول إبداءه من استكانة وطاعة.

في يوم الخطبة، ذهبت إلى الكوافيرة المجاورة مع شقيقتها، رفعت لها شعرها في كعكة عالية، ووضعت لها رموشًا صناعية، وعدسات زرقاء. نظرت في المرآة ولم تعرف نفسها. دققت قليلًا في ملامحها فتاهت، وتساءلت للحظة من هي وأين تكون. شعرت بدوار غريب يكتنفها، وكأن الهواء يسيل من حولها، وكأن قلبها يتحول لحجر ويزداد ثقلًا في صدرها. كادت تفر هاربة، لكن شقيقتها ظهرت في اللحظة ذاتها لتأخذها من يدها وتعود بها إلى البيت.

عاونتها على ارتداء فستانها البيج اللامع، كان بسيطًا بحمالات رفيعة، وضعت شالًا من الشيفون على كتفيها، ورشت قليلًا من عطر كنزو الخاص بأمها الذي لا يظهر إلا في المناسبات، ظلت واقفة دقائق طويلة أمام التسريحة في غرفة والديها، تتنفس بصعوبة، وتبلع ريقها بصعوبة، وشعرت أنها ضئيلة جدًّا في هذا الفستان، وأن وجهها مختبئ أسفل قناع ملون يكتم مسام روحها، لن تعود قادرة حتى على الوقوف على قدميها، لكنها جرتهما جرًّا لتتمكن من الخروج من الغرفة، وبذلت جهدًا إضافيًّا في رسم ابتسامة ثابتة على وجهها.

كانت أمها قد علقت بعض الزينة بمساعدة زوجة خالها وبناته، بينما اشترى أبوها جاتوهًا من أردأ الأنواع من محل قريب للحلويات، لم تبالِ وفكرت أنها ستغادر كل هذا قريبًا جدًّا، وأن الليلة خطوة هامة في سبيل حصولها على حريتها. كانت تتحرك وتتحدث وتبتسم بطاقة هذه الفكرة فقط.

عندما حضر محمد أخيرًا مع عائلته، اندهشت من عدد الأطفال الذين اصطحبوهم، اندفعوا إلى داخل البيت فامتلأ على آخره، جلست مدهوشة على مقعد من مقعدي الصالون اللذيْن وضعهما أبوها في صدارة الصالة على سبيل الكوشة، وجلس محمد بجوارها ببدلة أوسع من قياسه يبتسم محرجًا، بينما يتقافز الشياطين الصغار في كل مكان، يتخطفون الجاتوه من العلب قبل توزيعه.

كانت عائلته كبيرة جدًّا، سألته عن كل هؤلاء الأطفال فأخبرها بأنهم أبناء أشقائه. نظر إليها بسعادة وهو يقول: عقبالنا.

كانت الأفكار تروح وتجيء في عقلها، وأدركت أنها لم تفكر في

كل هذا عند تفكيرها في الزواج به، زوجات أشقائه ينظرن لها بدهشة واضحة، يرتدين العبايات السوداء والطرح الطويلة، يحملن أطفالًا ويمسكن أطفالًا ويطعمن أطفالًا ويصحن بأطفال، للحظة تخيلت نفسها في مثل مكانهن، فاقشعرت.

أخرجها من أفكارها متابعتها لأبيها بينما يستقبل شخصًا غريبًا على باب الشقة، كان شكله مألوفًا لديها، دققت النظر إليه فوجدته يبتسم بجانب فمه، فعرفته على الفور.

دق قلبها في صدرها، بينما يقترب منها مصافحًا، كان ينظر إليها بتأثر وارتعاشة فمه أوضح ما تكون، يقول: ما شاء الله ويكررها، عاد ليجلس مع أبيها، لكن عينيه لم تنزلا لحظة من وجهها.

كان زوج عمتها؛ جمال، تتذكر أول مرة رأته فيها، عندما فتحت له الباب يوم خطبته لعمتها، قادمًا وحده، يقف على الباب يبتسم بخجل، ظلت واقفة أمامه، رافعة رأسها إلى وجهه، حتى أزاحتها أمها جانبًا ودعته للدخول.

الليلة ينظر هو إليها بثبات، شعرت أنها تود النهوض والجلوس بجواره، لكنه لم يبقَ سوى لدقائق، رأته يدس ظرفًا في يد أبيها الذي شدَّ يده خجلًا بينما يتشبث بها. تبادلا بعض الكلمات ثم ذهب.

كان الصخب من حولها يزداد، شعرت بدوار يكتنفها، وودت لو عادت إلى غرفتها، لو جلست في شرفتها الصغيرة وتأملت السماء قليلًا، لو تنتهي الليلة بأيّ شكل.

١٢

كل ليلة يتكرر نفس الحلم، ترى نفسها أسفل بنايتها، تحمل حقيبة صغيرة لا تحوي سوى حذاء أحمر وكاميرا، تنظر إلى الشرفة فترى أباها وأمها، يناديانها بلهفة، يطالبانها بالعودة، تبكي أمها بحرقة، ترى وجهها مريضًا ونحيفًا، توشك على الاستسلام والعودة، لكنها تنقل بصرها للشرفة الصغيرة على الشمال، فترى عمتها واقفة بفستانها الأبيض، كما رأتها آخر مرة، تبتسم لها وتلوح مودعة.

على باب البناية يقف محمد واضعًا يديه خلف ظهره، ينظر إليها بحزن دون أن يتدخل، تحاول أن تناديه فلا تستطيع، تود الاعتذار منه، وإخباره بأنها لم تقصد إيذاءه. لكن الكلمات تنحشر في حلقها، صوت بكاء أمها ونداء أبيها يمزقانها. تنظر من جديد إلى محمد فتجده قد تحول إلى عم جمال. بنفس نظرته الحزينة وصمته الدائم. تستيقظ كل يوم والدموع في عينيها، لا تتوقف عن التفكير، زادها الحزن صمتًا حتى بدأت أمها تقلق عليها من جديد.

كانت تعد الأيام لبدء الدراسة، استيقظت منذ الخامسة صباحًا بحماس غريب أثار شكوك أمها، فأملتها توصيات شديدة اللهجة بضرورة عدم الذهاب إلى السايبر مجددًا، ووافقها على ذلك أبوها وحتى محمد حين عرف، أخبرها بأن ذلك لا يصح وقد صارت خطيبته، وأن كلام الناس لن يتركهما.

رفعت حاجبيها دهشة من منطقهم، كانت حرة في الذهاب في

السابق قبل ارتباطها الرسمي به، والآن لا يحق لها رؤيته سوى بمواعيد وفي داخل البيت، مع السماح بالخروج ليلة الخميس ليجلسا قليلًا في أيّ مقهى تختاره.

استسلمت للأمر دون جدل، خافت إن جادلت ألا يسمح لها أبوها بالذهاب أصلًا إلى المدرسة. نزلت قبل ميعاد زحف الطلبة والموظفين إلى أعمالهم، وجدت الشارع شبه خالٍ إلا من البائعات الجالسات على جانبي الطريق منذ الليلة الماضية، الهواء جميل يحمل رائحة الخضراوات الطازجة التي يبعنها، من الغريب أن الأمل كان يملؤها، وشعرت أن اليوم ربما يحمل لها بعضًا من الراحة.

مرَّ اليوم ببطء، تنصت بنصف انتباه لشرح المدرسين الخالي من الحماس في أول أيامِ الدراسة، تعد الدقائق في انتظار ميعاد الانصراف، تجلس صامتةً لا تفكر سوى في شيء واحد، اللحاق بموعد خروج عم جمال من المدرسة، وملاقاته والحديث معه.

لم يغادر بالها منذ أن رأته، وتعجبت كيف نسيت وجوده طوال هذه السنوات. عندما رن جرس الانصراف لملمت حقيبتها في دقيقة، وزاحمت الجميع للخروج بسرعة من الفصل، والسير في طرقات المدرسة العتيقة، وقطع المسافة القليلة إلى مدرسة الأحمدية التي يعمل بها.

وقفت تنتظر على الرصيف المقابل أمام كشك تصوير المستندات، تتظاهر باختيار مشروب غازي من الثلاجة الموضوعة بجوار ماكينة تصوير المستندات، وهي تنظر بطرف عينيها إلى البوابة. أخيرًا رأته يغادر بخطواته المرتبكة. أغلقت باب الثلاجة وسارعت للحاق به. نادته فوقف مندهشًا ينظر إليها تقبل باتجاهه.

ـ عمي.. ألا تعرفني؟

يحاول الابتسام لكن ارتعاشة فمه تصعب عليه الأمر، أكملت:

ـ أنا كاميليا.

كان يومئ لها برأسه، سار بخطواته الواسعة فسارت بجواره، سألها عن حالها وحال أبيها، فأجابته بأنهما بخير.

ظل صامتًا لدقائق، كان يسير باتجاه شارع النحاس وكأنها لا تسير إلى جواره، وأخيرًا سمعت صوته.

ـ حتى الرائحة؟

ـ ماذا؟

احمرّ وجهه عندما انتبه لما قاله، فأكمل:

ـ أقصد تشبهينها حتى في الرائحة؟

ابتسمت مرتبكة ونظرت إلى الأرض، لاحظت أنه ينظر إليها بولهٍ ويتنفس بسرعة، فسارعت بالحديث:

ـ الحقيقة يا عمو كنت أريد سؤالك عن عمتي.

ـ عن ماذا تحديدًا؟

ترددت للحظة، ولم تعرف بماذا تجيبه. هل تخبره بالحقيقة، أو تكتفي بجزء منها؟

ـ أريد أن أفهم لماذا هربت، أنت تعلم أن الموضوع شائك، أنا شخصيًّا أعاني منه إلى اليوم، الأقاويل تؤذيني وأريد أن أفهم، أليس هذا من حقي؟

ـ أي أقاويل يا ابنتي؟

ـ الأقاويل عن عائلتي وعن أبي.

ـ أبوك رجل طيب، وأنت بنت حلال.

ـ وعمتي؟

يتنهد وينظر إلى وجهها، يمرر يده على رأسه مرتين:

ـ أعتقد أني لا أملك الكثير لأقوله، وحتى لو كنت أعرف، فلا يمكن أن أتكلم ونحن نسير هكذا في الشارع. ربما أمر على والدك في البيت.

ـ لا أريده أن يعرف شيئًا.

نظر إليها بدهشة ولاحظ وجهها المحمر، تذكر وجه عمتها وفكر أن الفتاة بالتأكيد تحمل بعضًا من اضطرابها. أخبرها بأن حتى منزله لن يكون مناسبًا.

عرضت عليه اللقاء في اليوم التالي بعد المدرسة في مقهى تراه فارغًا دائمًا من الرواد، في شارع سعيد، فوافق بعد تفكير.

انعكاس

من أوراق كاميليا عاطف

اليوم عرف جمال أنني أسافر إلى القاهرة من وراء ظهره، بدا لأول مرة غاضبًا جدًّا، نظرة التبلد في عينيه تحولت وكأنما اكتشف كل شيء فجأة، كان غضبه ممزوجًا بالانكسار، وشعرت بالذنب تجاهه لأول مرة. لم يكن الوحش الذي حرمني من حياتي كما كنت أتخيل، وفكرت أني ربما أكون ذاك الوحش.

لم يسألني عما كنت أفعل، وكأنه كوّن تخيّله الخاص، رأيت في عينيه كل الأقاويل التي كانت تنتشر من حولي فيما مضى، وعرفت أن كل الناس نسيتها إلا هو، رغم أنه لم يذكرها قط.

استدعى ناصر، وعقدا لي اجتماعًا ثلاثيًّا في البيت، يستجوبانني فيه عما كنت أفعله، كم مرة سافرت خلسة، ولماذا أمتنع عن الذهاب إلى العمل؟ لم أتمكن من الرد، ولم أعبأ بتأكيد أفكارهما المسبقة، استمعت إلى كلامهما بصمت، وشعرت بعدم الرغبة في الدفاع عن نفسي. أو ربما أدركت أن لا شيء أقوله سيصدق. فكرت أنني عالقة في ماضٍ فات وانتهى الأمر، ولم أرد حتى التخلص من آثاره.

كنت أركب سيارة القاهرة من الموقف كل بضعة أيام دون إرادة مني، لا أحمل سوى الكاميرا التي أهداني إياها، أسعد لحظاتي على الطريق الزراعي، وأنا أتأمل الأشجار المتجاورة على الجانبين، الطريق كما هو، ربما ظهرت بعض الكباري الجديدة، ونمت أشجار

أخرى، لكن الحياة كانت ثابتة هناك بشكل يعيد إليَّ توازني، ويشعرني بأنني عدت لساعتين عبر الزمن إلى الخلف، وأنني ما زلت كاميليا القديمة، في طريقي لحضور اجتماع في المجلة، أو لملاقاتك.

الغريب أنني كنت نسيت شكلك، تخيل؟ ملامحك التي أحبها تتسرب ببطء من عقلي، رغم الصورة الصغيرة التي أحتفظ بها من مقال منشور عن معرضك الأخير، صوتك أيضًا تلاشى، أكتشف أنني استبدلت به صوت أبي، وحتى حركاتك بدت وكأنها مصطنعة، مزيج من حركات جمال وناصر، وأيّ شخص أقابله في السوق أو العمل.

لم أتأمل الأمر طويلًا، واستسلمت لسطوة الزمن، اكتفيت بالنسخة الجديدة المتخيلة منك، لأفكر فيها كل يوم قبل النوم، وأتحدث معها كلما سرت بمفردي على الطريق، أو جلست وحيدة في غرفتي في المنزل.

كان بي شوق شديد لرؤيتك، وإعادة تأمل ملامحك من جديد، معرفة ما الذي حدث لك، وكيف سارت الحياة بك. ربما لهذا السبب أردت تنفس نفس الهواء الذي تتنفسه، أو ربما تمنيت أن أراك مصادفة، في الأماكن التي لطالما التقينا فيها.

كل يوم كانت فكرة اختفائك التام تحزنني، وتخيلتك تكمل حياتك المستقرة دون أن تتذكرني ولو مرة، وشعرت بأنني أيضًا أكملت حياتي دون أن أتذكرك.

أنزل في رمسيس، وأجرب المشي في وسط البلد، ربما أجلس قليلًا في مقهى مفتوح، أو أتأمل واجهات المكتبات دون أن أدخلها. ورغم أنني كنت أحفظ مواعيد معارضك، فإنني لم أجرؤ ولو لمرة على زيارتها.

أتأمل انعكاسي على فاترينات المحلات وأشعر بالفزع، لم أتعرفني، فهل يعقل أن تفعل؟ كنت قد وصلت إلى حقيقة أن حبك لم يكن أعظم ما حدث لي كما كنت أتخيل، ولكن الأوان قد فات على إصلاح أيّ شيء، حتى هذا الاعتراف في حد ذاته كان يزيدني حزنًا، حياتي كلها ضاعت بسبب أكذوبة عشتها وغرقت فيها، لم يكن أمامي سبيل سوى الاستمرار في اللاعيش، واللاحياة.

كنت ألتقط الصور بحذر وأنا جالسة على المقهى، للفتيات اللاتي يدخن الشيشة على الموائد المجاورة، أو الشباب المتجمع حول مائدة أخرى. التقطت الصور لشوارع مزدحمة، ولمدخل مطعم الفول. وسلالم محطات المترو. كانت صورًا عشوائية بلا قطع ولا كادرات ثابتة، مهتزة بسبب سرعة يدي، والحرص على ألا يراني أحد، لكنها تحولت إلى هوسي الوحيد، والطريقة التي توصلت إليها لتسجيل اللحظات. واستعادتها مجددًا بعد عودتي؛ ربما لتنسيني حقيقة كوني عالقة في مدينة لا أحبها، وبيت لا آلفه.

الرغبة في المرور من شارع مرسمك كانت تغلبني، فأركب المترو إلى محطة سعد زغلول، وأصعد للمشي في الطريق الذي كنت أقطعه أسبوعيًّا فيما مضى بخفة، لألقي نظرة على المدخل الضيق المظلم، وأرفع عينيَّ إلى الشرفة الصغيرة الخالية، أرى جهاز تكييف صغيرًا مركبًا، وربما بعض قطع الملابس على الحبال، فأتأكد أن المرسم لم يعد هناك، وأن الشقة الصغيرة التي حملت أجمل ذكرياتي قد تلاشت. رسمة وجهي على الحائط دهنت بلون آخر، ربما البيج الذي يناسب عائلة صغيرة باتت تعيش فيها. بالتأكيد وُضِعت كنبة صغيرة ومقعدان في الصالة الخالية، وفراش كبير في

الحجرة، مع دولاب يحتل المساحة المتبقية، ويجعلهم يتحركون ببطء وحذر.

ربما انتقلت الشقة إلى ملكية شاب أعزب يعمل صحافيًّا في جريدة ما، قادم من بلدة صغيرة مثلي ليحقق أحلامه في القاهرة. ربما احتفظ هذا الشاب بوجهي على الحائط، ربما أثارته فكرة السكان القدامى، وربما رسم حوله وجوهًا أخرى. ربما يضع فراشه في نفس مكان فراشي، وربما لا يزال الكليم الأزرق هناك مفروشًا بمزقته الصغيرة عند الحافة. ربما كان المكان مثاليًّا لبدء قصص أخرى جديدة.

ألتقط الصور للبلكونة من الخارج، وللمدخل الضيق، وفي مرة اقتربت أكثر، عبرت البوابة الصدئة في محاولة لالتقاط صور للسلالم، لكنها كانت مظلمة جدًّا، كانت النتيجة عبارة عن ظلام يقطعه خط أبيض لسور السلم، لكنني احتفظت بها، وتأملتها لساعات طويلة.

أمشي حتى أصل لكوبري قصر النيل، كانت العمدان القديمة مضاءة رغم أن السماء لا تزال باللون الأزرق العميق، السحاب يتخللها مع بقايا آخر ضوء للشمس، والناس يسيرون على الجانبين دونما التفات، كنت أرفع عدسة الكاميرا لالتقاط الصور، فينظرون إليَّ باستغراب، ربما بدوت خارجة عن الشكل العام للمكان، امرأة بعباءة سوداء وحقيبة بنية، تلتقط صورًا للسماء على كوبري قصر النيل، شعرت برغبة في أن يتم تصويري هنا؛ لأتأمل نفسي من الخارج، وأرى ما وصلت إليه متجسدًا.

عندما كنت أعود من هذه السفريات السرية، كنت أستعيد قدرًا بسيطًا من طاقتي، ربما عدت إلى العمل يومين أو ثلاثة، متحملة

التقريع الدائم والتهديد بالفصل، أطلب من الفتيات كتابة موضوع تعبير عن مدينة يحبونها، ولا أجد سوى ديباجة متكررة رسمية، تتحدث عن نظام ونظافة وأمان مدينتنا. فأشعر مرة أخرى بالانفصال عن كل ما حولي، اللا انتماء إلى الزمان والمكان.

عندما وقفت أمام ناصر وجمال أستمع إلى تقريعهما، ولكلام ناصر المستتر عن ماضٍ لا يمكن الخلاص منه، مرت سنوات عمري كاملة أمامي، وفهمت أنني لن أتخلص أبدًا من القيود حول عنقي ويديَّ، وأنني كبرت وتغيرت، وظهرت التجاعيد حول عيني وفمي، وما زلت غير قادرة على فعل الأشياء التي أحبها، أنتقل كملكية خاصة من رجل لرجل، لا أملك حتى القدرة على السفر لمدينة مجاورة لبضع ساعات والعودة آخر النهار.

لم أستطع التنفس، كان قلبي يدق عاليًا، ولأول مرة أرد بشراسة على ناصر، أحاول الدفاع عن آخر شيء تبقى لي، الطريقة الوحيدة التي أتمكن بها من الاستمرار في العيش، لكنه حتى لم يستمع، قال إنني غير مرحب بي في بيت أبي، وتركني وذهب دون حتى أن أتمكن من الرد.

كان الشعور بالذنب واضحًا في عيني جمال، وفكرت أنه بالفعل رجل طيب. وأنه تحملني كثيرًا، شعرت أنني فعلت معه ما فعله أبي مع أمي. ربما لو ذهب سأكتشف أنه الشخص الوحيد الذي أحبني حقًا في هذا العالم، ربما لم يتمكن من التعبير عن حبه بالطريقة التي كنت أتمناها، لكنه على الأقل كان متواجدًا دائمًا إلى جواري. وشعرت بالأسى لأنني لم أعد قادرة حتى على إصلاح الوضع.

١٣

كان المقهى فارغًا فعلًا إلا من رجل يجلس إلى مائدة بعيدة يدخن الشيشة، لكن نظرات العاملين أربكت جمال كثيرًا، منظرهما كان مدعاة للتساؤل؛ رجل في منتصف العمر يجلس مع فتاة مراهقة بملابس المدارس الثانوية في مقهى شبه خالٍ بعد مواعيد الدراسة. لكن كاميليا تجاهلت كل ذلك، طلبت قهوة زيادة بثقة وكأنها تكبره عمرًا، بينما طلب هو شايًا.

كان يحمل حقيبة هدايا ورقية ملونة يبدو عليها القدم، وضعها أمامه على المائدة وظل ناظرًا إليها ينتظرها لتتحدث، لم تتركه ينتظر طويلًا، أعادت سؤالها عن عمتها، كان يمسح رأسه بيده، أخيرًا أخرج من الحقيبة كاميرا صغيرة رقمية عتيقة، من النوع الذي يعمل ببطارية جافة، وسي دي في علبته الشفافة ووضعهما أمامها.

ـ هذه الكاميرا تخص عمتك، أعتقد أنك أحق شخص بها. وهذه...

أمسك علبة السي دي بيده وناولها لها.

ـ هذا تسجيل صوتي لي، أحكي كل ما تريدين معرفته، حكيت كل التفاصيل وكأنني أحكي لنفسي. الحقيقة أنني بدأت وفي ذهني أن أخبرك بالأمور الأساسية فقط، لكنني لا أعرف كيف استمررت في التحدث بهذا الشكل، وأدركت أنني لم أحكِ لأحد منذ رحيل عمتك ما أشعر به حقًّا، الحقيقة أنكِ أسديت إليَّ خدمة.

ظلت صامتة تنظر إليه، رشف شايه بسرعة، وأخرج عشرين جنيهًا من جيبه ووضعها على المائدة.

ـ اعذريني لا بد أن أعود إلى المنزل، يجب ألا أتأخر أكثر.

راقبته وهو يغادر المقهى، كان يبدو أكثر خفة، يمشي بخطواته الواسعة وعلى وجهه ابتسامة خافتة، وشعرت بلهفة للتوجه إلى السايبر رغم التحذيرات، ووضع السماعات الكبيرة، وسماع ما تحويه الأسطوانة.

جمال سلطان

حين سمعت صوتك يناديني في الشارع ظهيرة هذا اليوم، تذكرت ما أحاول نسيانه ولا أستطيع، شعرت بطيف كاميليا في نفس اليوم، كانت تطاردني منذ رأيتك في حفل الخطوبة، نسخة صغيرة منها. كنت أحلق ذقني أمام المرآة ورأيتها تمر من خلف ظهري، ظللت طوال اليوم أفكر فيها، أعترف أنني أحلم بها أحيانًا، أفكر بها أحيانًا أخرى، يعتقد الجميع بأنني نسيتها وتزوجت فور رحيلها. هم محقون في اعتقادهم ولا أجد ما أدافع به عن نفسي، لكني لم أتوقف عن التفكير فيها، والدليل أنني شعرت بأن اليوم سيحدث شيء ما متعلق بها؛ لذلك عندما سمعت صوتك، ارتعش جسدي وشعرت ببعض التنميل في أعلى رأسي.

استدرت محاولًا إخفاء اللهفة الزائدة، أفكر ماذا لو كانت هي؟ ماذا لو رأيتها مقبلة تجاهي لنعود إلى منزلنا معًا، كما كنا نفعل طوال سنوات زواجنا، تتأبط ذراعي وتسير ببطء تنظر أمامها ولا تتحدث سوى بكلمات قليلة. نصعد إلى البيت فتخلع حجابها وعباءتها على الباب، وتهرع إلى الحمام؟

سنوات مرت على رحيلها، هل ستتعرف على شكل البيت؟ كيف سأعرفها على زوجتي؟ ماذا سأخبرها؟ تزوجت بعدك مدرسة العلوم في المدرسة، وأنجبنا طفلة، الشقة التي كانت تئن وحدة باتت ممتلئة بالحياة والرسوم على الحوائط الشاحبة، والغرفة الصغيرة المغلقة،

المظلمة دائمًا، اتسعت بفعل التواجد، بعد أن احتلها سرير ودولاب وسجادة ملونة مغطاة بالألعاب.

عندما استدرت ورأيتك تسرعين باتجاهي بملابس المدرسة، هدأ نبض قلبي، وأدركت سخافة أفكاري. وعندما اقتربت وتبينت ملامحها في وجهك، تلاشت السنوات وتوقف الزمن، وشعرت كأنني أتكون من جديد، خلاياي تتجدد، والموجودات من حولنا تختفي. تمر المشاهد أمام عيني، وكأنني أرى كاميليا للمرة الأولى وهي تخطو بحماس إلى داخل غرفة المدرسين في المدرسة، تجلس على مقعد بعيد مجاور للشباك المغطى بالقضبان الحديدية، كانت الشمس تنعكس على شعرها الأسود فيفتّح لونه وكأنه بلون أشعتها، بينما تختفي عيناها داخل بقعة مظلمة في الوجه.

تسألين: ألا تعرفني؟

كيف لا أعرفك وملامحك محفورة في ذاكرتي؟ كل يوم أتخيل مشهد عودتها عشرات المرات، أتخيلني أصفعها بعزم قوتي مرة، أو أحتضنها فقط بلا كلام، مرات كنت أصرخ: أين كنتِ؟ أصرخ حتى يؤلمني حلقي في الحقيقة، أمسكها من كتفيها، أهزها وأبكي، أو ألقي بخطبة طويلة تنتهي بأن أرمي يمين الطلاق، وأطالبها بالعودة حيث كانت.

لكني أدركت يوم سمعت صوتك وظننتك هي، أنني لن أفعل شيئًا من هذا، سأظل واقفًا أمامها بصمت، سأتركها تقول ما تريد قوله، وسأعود معها إلى المنزل مهما حصل.

بعدما تركتك في شارع النحاس، وأكملت طريقي للبيت، دخلت فورًا إلى غرفة النوم، طلبت من صفاء ألا توقظني لتناول الغداء، قلت

إنني متعب جدًّا وأحتاج إلى النوم. تظاهرت بالنوم لما بعد العصر، كنت أشعر بحركة صفاء من حولي، أشعر بها تتأمل جسدي الثابت، ترتاب في حقيقة كوني نائمًا، لكنها قررت تركي وشأني. كان العرق يغمرني رغم البرد، وعندما لم أعد قادرًا على تحمل البطانية الثقيلة، نهضت لتغيير ملابسي.

غادرت البيت بحجة زيارة أمي، شعرت برغبة في شم الهواء، سرت في الشوارع المتكسرة والضوء ينسحب من السماء شيئًا فشيئًا، هبات باردة أنعشتني قليلًا، وسحبت شعوري بالقلق والتوتر الذي سيطر على جسمي.

لا يبعد بيت أمي عن بيتي كثيرًا، أنت تعرفين أن المدينة صغيرة، وكل الشوارع تتصل ببعضها من ثغرات وسط العمارات والحارات الضيقة، دخلت من البوابة المفككة، وصعدت السلالم الرطبة التي أتخفف برائحتها من همومي الحالية. كانت كاميليا تبرر تركها للمنزل لأسابيع بأنها تعود بالزمن سنوات إلى الخلف في بيت أبيها، وتشعر بأنها أصغر وأخف، تستعيد إحساسها بقوامها النحيف وشعرها المتحرر من الطرحة، وتتمكن من الابتسام.

أتفهم كلامها ـ الذي لطالما تسبب في الشجار بيننا ـ وأنا أفتح باب البيت بمفتاحي الخاص، وموسيقى فيلم الشموع السوداء تصل إلى أذنيَّ، كانت أمي جالسة على الكنبة مغطية كتفيها بشال صوفي، أمامها السبرتاية والقهوة، أعرف أنها تتناول قهوتها في هذا الوقت، أنعشتني الرائحة وهي ترحب بي، ناولتني الفنجان الجاهز، وأعدت لنفسها آخر.

لكني لم أتمكن من شرب شيء، توجهت لغرفتي القديمة، لا تزال كما هي، سريرْين بدورين متجاورْين في المساحة الضيقة، ومكتب جانبي ينال شرف الاستذكار عليه من يسبق بيني وبين إخوتي.

اتجهت للسرير الأيمن ونظرت أسفله، الحقيبة القديمة لا تزال في مكانها في الركن القصي بجوار الحائط، حاولت سحبها من وسط الغبار، سألتني أمي من الخارج عما أفعله بعد أن وصلت إليها أصوات سحب الشنطة، لا شيء، أرد عليها بصوت لا يصلها بسبب صوت التلفزيون العالي، كانت أغنية «لا تكذبي» تصل إلى أذنيَّ ضبابية، أسمعها بحكم معرفتي باللحن والكلمات، انقبض قلبي أكثر وشعرت بأنني أقسو على نفسي بما أفعله، وكأنني أخرج عمتك من قبر خفي لا يعرف مكانه أحد، قبر أقمته لها أنا أسفل هذا السرير، ردمت عليه غبار ذاكرتي وادعيت أنني نسيته.

نجحت أخيرًا في إخراج الحقيبة، انزعجت من يديَّ المتربتين، وارتعش فمي، جززت على أسناني محاولًا طرد شعوري بالرغبة في الاغتسال من هذا الغبار بالذات، وفتحت السوستة المتصلبة.

كان لون الحقيبة ذات يوم بنيًّا، تقشر الجلد وصدأت السوستة، وتآكلت حمالتا اليد، حقيبة كاميليا المفضلة، كبيرة كما كانت تحب، بلا تفاصيل أو الكثير من الجيوب، تبدو كجوال منقسم بسوستة طويلة في المنتصف، اعتادت حملها إلى كل مكان، يوم حدثني أخوها ليسألني إن كانت عادت إلى المنزل بعد اختفائها من الصباح إلى المساء، رأيت الحقيبة على السرير بمحتوياتها كاملة، وعرفت أنها لن تعود.

حين رأيت كاميليا للمرة الأولى، عرفت أنها تفوق مستوى

أمنياتي، كانت الأجمل في المدينة، تمر في الشارع فتتابعها النظرات، تدخل الفصل فيصمت التلاميذ.

عندما التحقت بالعمل ظننتها مدرسة الرسم أو الموسيقى، اتضح بعد ذلك أنها مدرسة اللغة العربية الجديدة. زاملت شقيقها قبل ظهورها، في تدريس الرياضيات بالمدرسة، لم يكن لي في الحقيقة أصدقاء غيره، يتحملني على انطوائي، ويحادثني رغم صمتي.

العمل في المدرسة كان بمثابة العقاب لي، لا أحبه ولا يحبني، يكرهني التلاميذ والزملاء، خافت الصوت قليل الثقة، لا أجرؤ على النظر في عيون تلامذتي ولا معاقبتهم، أردد الدرس بطريقة آلية، أنتهي منه فألملم أوراقي وكراريس التلاميذ وأعود لغرفة المدرسين.

ناصر كان مثلي، هادئًا ومنطويًا، يدرس اللغة الإنجليزية، وينتهي فيسرع بالمغادرة، لم يملك أصدقاء سواي، ولم يكن يحب الدروس الخصوصية مثلي، أما شقيقته فكانت كتلة حيوية تسير على قدمين، يحبها الجميع من نظرة وكلمة، يقدمون لها الخدمات بلا مقابل، التلاميذ يصمتون حين تدخل الفصل، يتحولون إلى ملائكة في غاية الذكاء والنظافة والروعة، والمدير يصير رجلًا ظريفًا لطيفًا، يوافق لها على الإجازات ويقبل الأعذار.

بالرغم من الفارق الكبير بيني وبينها، رأيتها فتاة أحلامي ووقعت في الحب صامتًا مثل كل شيء، عندما تأتي الصدفة بحديث يجمعنا، لا تجد مني سوى التهتهة والكلمات المتعثرة، لكنها لم تلاحظ ذلك، كان نظرها ثابتًا على فمي، تسمع ولا تسمع، تهز رأسها وكأنها تفهم جيدًا ما أقوله، ثم تذهب في طريقها.

في يوم تجرأت وسألت ناصر إن كانت مرتبطة، نظر لي بإشفاق وحرج، وقال: لماذا لا تفاتحها؟ فهمت أنها طريقته في التهرب من الموقف، وأنه لا يريد أن يخسرني، قدرت له ذلك ونسيت القصة بكاملها.

غابت كاميليا لأسابيع، شهر كامل عرفت أنها أخذته كإجازة مرضية، وعندما سألت ناصر عليها، رفع رأسه إليَّ، ظل صامتًا لبرهة ثم قال: تعبانة قليلًا.

فكرت في ابتياع علبة شوكولاتة وزيارتهم، لكن خجلي منعني، فاكتفيت بالانتظار، وتجاهل الأحاديث التي بدأت تظهر في المدرسة والمدينة.

يبدو أن ناصر تظاهر مثلي بعدم السماع، كان المدرسون يتهامسون بحكاية كاميليا المحبوسة في البيت بعد محاولتها الهرب من المنزل، وأن سفرها الدائم للقاهرة في نهايات الأسبوع، لم يكن من أجل عملها في الصحافة كما كنا نعتقد بسبب اسمها على المقالات في المجلات، لكن بسبب علاقتها الآثمة برجل قاهري، كانت تود الهرب معه.

تذهب المدرسات لزيارتها بعد المدرسة، ويعدن بأقاويل جديدة، تتصعب إحداهن بشفتيها في نهاية الودوَدة، وتهمس: ربنا يسترها على ولايانا.

لا يسترها أحد رغم ذلك، كانت الأقاويل تتضخم وتخرج من حيز المدرسة الصغير إلى المدينة الأصغر، باتت الحكاية كما قصة نقرؤها في صفحات الحوادث، البعض وصل به الخيال إلى تأكيد أن أباها قتلها ودفنها، وأنها بلا ديّة.

أكذب الأقاويل، وأظل طوال اليوم أفندها وأرد عليها، كاميليا صحفية فعلًا، أحتفظ بمقالاتها التي تظهر في مجلة نصف الدنيا، أطالع اسمها وأقرأ كلماتها كلها، لم تكن المقالات تعنيني، ولم أرها يومًا مسلية أو مختلفة، لكنني أحببت اسمها المطبوع، ورغبت أن أبدي اهتمامي لعلها تعلم ذات يوم.

عندما دخل ناصر عليَّ في غرفة المدرسين صباح يوم، لم يكن هناك سواي، أحاول الانتهاء من تصحيح الكراسات قبل الحصة الثانية، لكنه لم يمنحني الفرصة، جلس بجواري تمامًا ناظرًا إليَّ بصمت.

ارتبكت من نظرته، عدلت نظاراتي دون أن أرفع رأسي إليه، سألته إن كان يريد شيئًا.

ـ هل تحب كاميليا؟

صدمني السؤال، زاد تعرق يدي وانفلت القلم الأحمر منها، لم أعرف كيف أرد، مئات الصور تنهمر على رأسي، ما بين وجهها الجميل الصامت، وأحاديث المدرسين، حاولت الإنكار أو حتى التجاهل، لكني كنت أهز رأسي موافقًا بلا كلام.

ـ إن كنت تحبها فنحن مرحبون، لا نريد سوى دبلتين وشقة. أبي قادر على المساعدة في تأثيث الشقة.

قالها ونهض عاجزًا عن مواصلة النظر في وجهي، وظللت أنا أهز رأسي موافقًا حتى بعد أن مضى. إلى اليوم أشعر وكأنني كنت منفصلًا عن العالم، أبله يقودونه من يديه لفخ محكم، لكن الفخ كان جميلًا، جماله جعلني أقف أمام أمي التي رفضت الزيجة بكل قوتها، وأن أتجه وحدي ببدلة سوداء وربطة عنق قديمة إلى بيت كاميليا لأخطبها.

وصلت النميمة إلى أمي القابعة في بيتها لا ترى أحدًا، تعرف كاميليا كما يعرفها الجميع، لا تبدي اندهاشها أو تعجبها، فالبنت تمشي برأس مرفوع ونظرات وقحة منذ صغرها، ليس مستغربًا أن تبلغ بها الجرأة هذا الحد.

ـ الغلط على أبيها الذي ترك لها الحبل على الغارب.

أفاتحها في رغبتي، وأحاول إقناعها أنها مظلومة، وأن الشائعات يمكن أن تقال على الجميع، أذكرها برمي المحصنات فتتوقف عما تفعله، ترفع رأسها إليَّ تتأملني من أعلى لأسفل وتقول: أنا خيبتي فيك كبيرة.

تراني أمي دائمًا مثالًا للخيبة، على الرغم من هدوئي وعدم تسببي في أي مشكلة منذ صغري، تسألني لماذا لا «أتنحرر» قليلًا، وتشكو لإخوتي مني. كانت تتشاجر معهم كل يوم، بينما لم أرفع صوتي عليها قط، ومع ذلك كنت أنا خيبة أملها، ومصدر حسرتها.

ـ كلمة واحدة: لو تزوجتها فانسَ أن لك أمًّا. هذه الفتاة ستشقيك، تذكر كلامي وترحم عليَّ إن مت.

لم أنسَ أن لي أمًّا، ولم أطعها أيضًا، كنت أراهن على طيبة قلبها وصفحها المستمر لإخوتي الذين ارتكبوا مصائب أعظم، راهنت على جمال كاميليا وعلى سعادتي القادمة. كيف ستشقيني وهي الحلم المجسد على الأرض؟

جلسنا متجاورين على كنبة الصالون المذهب، هي بفستان وردي مغلق، ومكياج غريب عليها وكأن أحدًا لونها بفرشاة، تاركة شعرها منسدلًا كما هو، لم تقابلني بدهشة، ولا تبادلت معي الكلمات،

صافحتني وجلست، وكأن هذا هو بالضبط ما طُلب منها، وعندما ألبستها دبلتها، كان كفّ يدها رخوًا مستسلمًا، ألبستني دبلتي بسرعة، وضمت كفيها على حجرها.

اقتصر الحضور على أبيها وشقيقها وزوجته، ونفر من عائلتها قادمين من الزقازيق، بينما لم يذهب معي أحد، أشقائي جميعًا رفضوا الحضور مع زوجاتهم طاعة لأمي، وهي نفسها أخبرتني بعد أسابيع من المعارك الموجهة من جهتها، التي قابلتها بالصمت التام، أنها غاضبة عليَّ، وأنني سأسكن معها كضيف إلى حين الانتقال لمنزل آخر.

لا أعرف ما الذي أقنعني بتحمل كل هذا، كنت أسير وحيدًا نحو هدف امتلاك كاميليا التي لم تقاوم، أشعر وكأنني مطالب بحمايتها، وإيقاف كل الكلام الذي يتردد. والحقيقة أنني لم أكن أهتم سوى بتحقيق أمنية شعرت يومًا أنها مستحيلة، حسبتها بطريقة رياضية، علمت أن كل الكلام سينتهي، وستتبقى حقيقة أنني من فاز بأجمل فتاة في المدينة، هذه الفرصة التي لا تأتي لأمثالي سوى مرة واحدة.

لم أدخل في علاقات عاطفية لا في مراهقتي ولا دراستي الجامعية، كنت دائمًا مثار سخرية الجميع، مراهقًا بنظارات سميكة لا يملك ما يميّزه، ليس متفوقًا بشكل ملحوظ في الدراسة ولا الرسم ولا حتى في لعب الكرة، شبحًا أو طيفًا، طفلًا عاديًّا ثم مراهقًا بلا أحلام، ثم شابًا وحيدًا بلا أصدقاء.

أترك نفسي لسيرورة الزمن، تمر الأيام كما هي دون تجديد، لم أرغب في طعام بعينه، ولا ملابس بعينها، لم أحلم بممثلة سينما، ولا مغنية، ولم أشجع فريقًا للكرة، ولا كان لي بطل مفضل.

لا شيء يجذبني سوى وجه كاميليا. حين علمت بأنها تعمل في الصحافة، داومتُ على شراء مجلة «نصف الدنيا» كل أسبوع، كنت أنظر إلى تحقيقاتها واسمها الجميل أسفلها أو أعلاها، كاميليا عاطف. أقصها بحرص، وأحفظها في كشكول تحضير العام الماضي، لم أحدث عنها أحدًا، ولم أتوقع أن تفضحني نظراتي، وأن حبي ظاهر للجميع.

اعتدت الذهاب إلى منزلها كل خميس بعد الخطبة، نجلس صامتين أو أتمتم بكلمات قليلة، تنظر إلى وجهي دون أن يرمش لها جفن، تبدو غارقة في تفكير عميق لا يعنيني، فأعود إلى الصمت، أو الحديث مع أبيها عن آخر ترتيبات الشقة التي دفعت مقدمها في مكان بعيد لكنه رخيص، قرب ترعة القاصد، وأعده بأن هذا المكان سيصير عمارًا بعد سنوات.

اخترت الأثاث مع أبيها، كان يعرف ما يفعله، اصطحبني لنجار معرفة، واختار بالنيابة عنا غرفتي الصالون والنوم، بينما اشتريت كنبة وكرسيين جاهزين من معرض موبيليا صغير للصالة. لم يبخل أبوها بمال ولا جهد، كان يسير بجواري بكامل طاقته، يضرب الأرض بعصاه متحمسًا، يأمر فيطاع، تمنحه قدمه الخشبية هيبة ما، وإصراره على ارتداء البدلة في كل الأوقات حتى في عز الحر، يزيده أهمية أمام الجميع.

دون أن أشعر، انتهى تأثيث الشقة في ستة أشهر، تبادلت فيها الحديث مع كاميليا خمس مرات، بينها مرة واحدة جلسنا فيها معًا في البوريفاج، قضتها متأملة طبقها الذي لم تمسه، تسمع حديثي وتهز رأسها.

فيمَ كنت آمل؟ إلى اليوم لا أعرف، كان حلم العيش معها في

بيت واحد يسيرني ويتحكم فيَّ، ولأول مرة راودتني مشاعر حسية تجاه امرأة، وحلمت باحتضانها، وتذوق شفتيها، ولمس جسدها.

في يوم الزفاف طلبت من أمي مرة أخرى الذهاب معي، كنت قد أقنعت إخوتي بمرافقتي بعد أن تقبلوا الأمر الواقع، وتململوا من رفض أمي الدائم لكل شيء، في النهاية وضعت شالًا أسود على كتفيها ورافقتني لنادي المعلمين، جلست في آخر القاعة كالغرباء، لم تكن غاضبة، كانت ضعيفة بسبب الحزن، تنظر إليَّ وكأنها تحضر جنازتي وليس عرسي، ولم تستجب إلى أي محاولة من حميي لإذابة الجليد أو انتزاع ابتسامة.

في الشنطة البنية، الكاميرا الرقمية الصغيرة التي ابتعتها لها، الكراسة التي لا تزال تحوي تحقيقاتها المصورة المقصوصة من الجرائد، محفظتها، بعض قطع من لبان سمارة في ورقه القزاز، أوراق مكتوبة بخط يدها فيها أسماء، ربما تلاميذها في الصف، كانت ترسم دوائر متداخلة على طرف أي ورقة تقع تحت يديها، متاهة لا نهائية ترسمها يدها بلا شعور.

لم أعد أشعر بالحزن، أنهيت كل أحزاني منذ سنوات، عندما اختفت تبدد حلمي بامتلاك ما أحب، وشعرت بأنني السبب في اختفائها، لم يكن من المحتمل أن أحظى أنا بكاميليا، أو تنحاز الدنيا لصالحي، فعلى الرغم من التبدل الذي اعتراها بعد أشهر قليلة من الزواج، وشكلها الذي تغيّر شيئًا فشيئًا، وكأن طبقات ثقيلة أضيفت إلى وجهها وجسمها، فإنني ولفترة طويلة، لم أكن قادرًا على رؤيتها سوى كما هي في صورتها الآن بين يدي، جميلة، بنظرة حزينة ومرعبة.

كان جهاز الكمبيوتر القديم موضوعًا بإهمال في جانب الغرفة، نقلته إلى بيت أمي فور زواجي من صفاء، وابتعت جهازًا محمولًا حديثًا. تركت عليه كل الصور، لم أقوَ على مسح أيّ أثر لها، أفتحه فيهدر بصوت مزعج، كانت لوحة المفاتيح متربة، والسماعات تالفة، وفكرت أن عليَّ نقل هذه الصور قبل أن يتوقف تمامًا عن العمل.

أتطلع إلى كل الصور، لا تظهر سوى في صورة زفافنا التي التقطت لها صورة بالكاميرا الرقمية فور شرائها وحفظتها على الجهاز، فيها تقف مسندة يدها على كتفي، أنظر إليها وتنظر هي إلى الأسفل، وكأنها نظرة عروس خجلة، لكنها في الواقع الوضع الوحيد الذي رغبت بالتصوير به، بعد عجزها عن النظر إلى عينيَّ، أو رسم ابتسامة.

الحزن البادي عليها في ليلة الزفاف جعل أمي تهمس في أذني بأنها زواجة الشؤم، صافحتها بصمت ولم تقبلها، رغم أن كاميليا حاولت إبداء بعض الحفاوة بها، وبأشقائي الذين يرونها لأول مرة.

جمالها كان ساطعًا ليلتها، ورغم حزنها وطبقة الدموع في عينيها، فإنني كنت سعيدًا جدًّا، اليوم أشعر بغصة في حلقي، وأفكر أنني ربما بدوت لها وحشًا مريعًا، جاء ليسرقها من أحلامها، ويبدد أمنياتها، وربما حبها لرجل آخر لا أعرفه.

أشعر بمدى حمقي وغبائي، وأتساءل عن اندفاعي، الذي تم تصويبه بعد اختفائها، بل تعديله بامتلاك أسرة حقيقية، زوجة تنظر في وجهي وتناكفني وتتشاجر معي بحماس إنساني، وطفلة تراني أهم شخص في العالم.

عندما اختلينا ببعضنا، شعرت بأن عليَّ فعل شيء، كانت تجلس

منكمشة على المقعد في ركن الغرفة، تضم يديها إليها وللحظة شعرت بأنها ستبكي، فتركتها وغادرت إلى الصالة لتبديل ملابسي. نمت ليلتها على الأريكة دون أن أطل عليها أو أتبادل معها كلمة.

في الصباح التالي، انشغلنا بمقابلة أهلها، لم يأتِ والدها، كان الطارق أخوها وزوجته وطفلتهما، جلسنا معًا بلا مشاكل، حتى إنها ابتسمت وهي تداعب الطفلة، أو تتبادل حديثًا مع أخيها. تعاملت كاميليا بعادية، ونهضت لإعداد الشاي والمشروبات، وبادلتني كلمتين أو أكثر أمامهما.

ليلتها عندما اقتربت منها لم تمانع، ولم تبدِ تشجيعًا، كانت ثابتة وباردة، وكأنني أضم وسادتي كما كنت أفعل أيام المراهقة، ترددي انتهى بين الاقتراب والابتعاد بسلطة الجسد، وتجسد أحلامي في امتلاكها دفعني للاستكمال، فكرت أنها بالتأكيد خجلة، وزاد هذا من تعزيز رفضي لكل الأقاويل التي كانت قد اندثرت عنها، لكنها لم تفارق عقلي يومًا.

كانت تتململ أحيانًا، أو تبعد وجهها عن وجهي، تحاول مساعدتي على الانتهاء بأسرع ما يمكن، لتنهض مسرعة بعدها إلى الحمام، أو تنشغل بأيّ شيء في المطبخ، أنام قبل عودتها إلى السرير.

رغم معاملتها الطبيعية لي، فإنني كنت أشعر بالحرج الدائم، بمزيج من الذنب والضيق، وكأنني سجانها، وكأنني مجرد رجل لا تعرفه يحبسها بين جدران منزله، ينتهك جسدها وروحها، كان التعامل بيننا مصطنعًا وكأننا نشاهد اثنين آخرين من الخارج، أتحدث معها بكلمات موجزة كما كنا نفعل في غرفة المدرسين في المدرسة،

لا تسألني عن يومي ولا رغباتي، ولا أعرف شيئًا عما تفكر فيه. الأفعال البسيطة الحميمية بين أيّ اثنين متزوجين تكاد تكون منعدمة، لا تغيّر ملابسها أمامي، تحرص على إغلاق الحمام جيدًا خلفها وتظل فيه لفترات طويلة، وكأنها تحاول تقليص الوقت الذي تضطر فيه إلى الجلوس معي.

بعد سنين، عندما توقف التواصل البسيط بيننا، ولم يعد جسمها الممتلئ يغريني، كنت أستعيد ملمس شفتيها المكتنزتين، وجلدها المشدود، وأتساءل: كيف اختفى كل هذا، وكيف تحولت هي، وتحولت أنا؟

الزمن يغيّر كل شيء، يضيف طبقات من الاعتياد على قلوبنا، ويعيد تكوين الحياة أمام أعيننا، القرب يجعل الصورة تبدو أكثر وضوحًا، نرى النغبشات الدقيقة عليها، التي لا نراها بسبب الافتتان في البدايات.

لم يبدُ اختلاف حقيقي على حياتي بعد الزواج، كنا نذهب صباحًا إلى المدرسة، بعد عودتها مرة أخرى إلى العمل، فنجلس في غرفة المدرسين كالغرباء، ننهي اليوم الدراسي، ونعود. بدأت في إعطاء بعض الدروس الخصوصية على استحياء، يأتي الطلبة غير القادرين لمعقولية التكلفة، فأحاول منحهم كل جهدي، شعرت بتحسن في أدائي، واختفى بعض من تهتهتي الدائمة.

خصصت غرفة الصالون التي وضعت في صدارتها صورة الزفاف في برواز ذهبي عريض للدروس، فيما تجلس كاميليا في غرفة النوم، تقرأ أو تنظر من الشباك الصغير للخارج في صمت.

البيت هادئ طوال النهار والليل، والحياة تسير ببطء ثقيل، نتناول

طعام الغداء والشاي، أنام لو كان يومًا فارغًا أو أستغرق في الدروس حتى العشاء.

في يوم الجمعة أصحبها لمنزل أبيها، أتركها وأذهب وحيدًا لزيارة أمي، طوال الأشهر الأولى كنا نذهب معًا، ثم أمر لاصطحابها لنرحل معًا، لكن منذ أن تُوفيَ والدها فجأة بعد ثلاثة أشهر من زواجنا، حتى باتت تطالب بالبيات هناك كل خميس، وأمر لاصطحابها مساء الجمعة.

نأخذ الأوتوبيس إلى ميدان المحطة، ثم نسير متجهيْن إلى شارعهم بلا كلام، أسبقها بخطوتين فلا تلحق بي، تتركني متقدمًا عنها، بينما تمشي هي خلفي بخطوات ثقيلة، وكأنها تساق لإعدامها.

لم أفهمها، رغم تفهمي حزنها وانهيارها الشديد على أبيها، خاصة بعد أن اكتشفت هي جسده الخالي من الحياة. سافر أخوها وأسرته إلى مرسى مطروح، وتركاه وحيدًا لأسبوع، اعتادت فيه كاميليا المرور عليه بعد عصر كل يوم، تحمل له غداء اليوم التالي، أو تنظف البيت سريعًا.

في يوم ثلاثاء، مرت عليه كالعادة فوجدته ميتًا وحيدًا أمام غداء بارد لم يتناوله. تجمدت إلى جواره لساعات، عندما مررت لاصطحابها، وجدت الباب مفتوحًا وهي جالسة إلى جواره تتأمل الفراغ. كان المنظر مرعبًا، لم أعرف ما الذي ينبغي عليَّ فعله، هرعت لاستدعاء الجيران ومحاولة الوصول إلى ناصر. تولى الجيران كل شيء، وعندما حضر أخوها صباح اليوم التالي كان كل شيء معدًّا، البيت مزدحم بالمعزين والمتطوعين للغسل والتكفين، والصوان ينصب بهدوء أسفل البناية.

لم تتحدث كاميليا طيلة شهر، وتفهمت أنها مصدومة، لكني لم أفهم لماذا تصر على البيات في هذا المنزل بعد أن انتهى ما كان يربطها بقوة إليه. أخوها يملك حياته الخاصة، وزوجته وبناته، ارتباطها بابنة شقيقها، سميّتها، كاميليا، يمكن أن نحله بزيارات أسبوعية.

لكنها ظلت تتغير، ترتدي عباءات سوداء منذ الوفاة، وحجابًا طويلًا تعقده بإهمال حول عنقها، ازداد وزنها، واسمرَّ وجهها، لم يبقَ فيها سوى عينيْن واسعتيْن تختلط بهما الحدة والوداعة فيثيران رعبي.

لم أعد قادرًا على رفض طلبها، كانت تحتد عليَّ بصوت غريب، بات الصياح هوايتها الأولى، تتشاجر على أتفه سبب، تحولت إلى امرأة أخرى، تصرخ طوال الوقت، تتفوه بألفاظ وشتائم، ثم تغلق الغرفة الصغيرة المظلمة عليها بالساعات.

جنونها كان له نوبات، تمر الأيام وهي صامتة تقرأ، ثم تبدأ في الشجار على أدنى سبب؛ على تلميذة طرقت باب الشقة قبل ميعاد الدرس بدقائق، على تأخري في ابتياع الخبز ذات مساء، على تركي للمنشفة على ظهر الكرسي خارج الحمام.

تهب من مقعدها فتبدو أطول مما كانت بكل طبقات الشحم المضافة لجسمها، وتصرخ بأنني مهمل ولا مبالٍ، باتت تنظر الآن إلى عيني بكراهية صافية، وكنت لا أقوى حتى على الرد.

الحقيقة أنني لم أكرهها يومًا، كنت أراها دائمًا كما كانت، لم أكن في حاجة لتذكيرها الدائم لي بأنها أجمل بنات المدينة، وأنها تعطفت عليَّ بالزواج، تمصمص شفتيها وتندب حظها، بات استياؤها من الحياة واضحًا، وكنت أسمع نهنهتها المستمرة بلا دموع في المطبخ والحمام.

كانت تقضي معظم وقتها تتأمل ألبومات صور عائلتها التي تحضرها من بيت أبيها، جاءتني الفكرة، تذكرت حبها للتصوير الذي لطالما حدثتني عنه في جلسات ندبها المستمر على ماضيها، وعملها القديم، وبدأت في السعي لتحضير أكبر مفاجأة يمكن أن يفعلها أحدهم لزوجته.

كانت الكاميرات الحديثة الرقمية هي المعجزة الجديدة، أقرأ عنها وأندهش من فكرة التخلي عن الأفلام والتحميض، كنت معجبًا بكل جديد تكنولوجي يظهر، فضولي أولًا هو ما دفعني للبحث، ثم امتزجت به فكرة مفاجأتها بشيء مميّز، لو تمكنت من الحصول على واحدة من هذه الكاميرات، بالتأكيد سأسعدها، ستعبر عن امتنانها، ستبتسم وتذوب كل الحواجز بيننا، كنت أسعى لتحسين صورتي أمام عينيها، لا أعرف بسبب بقايا الحب أو للتخلص من شعوري الدائم بالذنب، رغم أن لا ذنب لي.

كل هذا جعلني أوصي مدرسًا للغة الإنجليزية على وشك السفر لأمريكا في منحة حكومية لتبادل الخبرات التعليمية، بالبحث عن الكاميرات الحديثة هذه، وإرسال أسعارها إليَّ. حذرني من غلو سعرها، لكنني لم أهتم، كان ثمنها بالفعل هو نصف مدخراتي وقتها لكني أعطيتها له بطيب خاطر، أحلم باللحظة التي سيرسلها لي، وبالنظرة على وجه كاميليا وقت أن تراها.

بعد شهور تمكن من إرسالها،كانت كاميرا كاسيو صغيرة معدنية في جراب جلدي أنيق، لها شاشة عريضة تظهر عليها الصور، وجزء جانبي به العدسة يدور حول مركزه ليتمكن حاملها من التقاط الصور لنفسه، وكانت تعمل بالبطاريات الجافة. لم يعد ضروريًّا أن نلصق

أعيننا بالعدسة، أما التحميض فانتهى أمره. كانت الكاميرا تعرض الصور على شاشتها فور التقاطها كأنها بلورة سحرية. عدت إلى البيت سعيدًا كطفل، أخرجت الكاميرا أمام كاميليا التي لمعت عيناها لأول مرة منذ سنوات، جلسنا معًا طيلة فترة بعد الظهر للتعرف على هذه المعجزة الصغيرة، شعرت أن المعجزة الحقيقية كانت الابتسامة الحقيقية على وجهها. يومها هنأت نفسي على نجاحي، وتعشمت في حياة أفضل قادمة.

في لحظات صفائها تلتقط لي صورًا بثياب البيت، تقف في الشرفة لالتقاط صور عشوائية للشارع، لم تصور نفسها قط، لم تكن تنظر حتى في المرآة، كانت تكره صورتها الحالية والقديمة، وتتحاشى التجمعات والأفراح، حتى إنها ارتدت نقابًا يخفي وجهها لشهور، ثم خلعته وحدها دون كلام، اكتفت بإخباري بأنها لم تستطع التنفس.

جمعية صغيرة قبضتُها في المدرسة سمحت لي بتركيب طبق دش أخيرًا على سطح البيت إلى جوار الأطباق الأخرى التي كانت تتكاثر بسرعة على أسطح بيوت المدينة، كنت قد اشتركت لشهور في «وصلة الدش» التي يملكها شباب صغار ويديرونها من شقة خالية في الطابق الأرضي للعمارة المجاورة، باتت الوصلة هي الأكثر رواجًا في المدينة، في كل شارعين تجد المختص بإيصالها للبيوت المحيطة، لكني لم أعجب بالسيطرة الكاملة على اختيار القنوات، وتقليبهم من قناة لأخرى في منتصف متابعتي لفيلم أو برنامج.

صممت على شراء ريسيفر خاص، اكتشاف هذا العالم كان فاتنًا، النايل سات والعرب سات والهوت بيرد، ثلاثة أقمار شرح لي الفني كيفية التنقل بينها، بينما تجلس كاميليا على الكنبة غير مبالية بما أفعل.

أحاول أن أشرح لها بأن هذا فتح جديد، لم نعد مضطرين لانتظار قناة بعينها على الوصلة، أو انتظار فيلم قديم على القناة الأولى، بل سنختار من بين الكثير من الخيارات الواسعة على كل القنوات، لكنها لم تكن مهتمة إلى هذه الدرجة بالتلفزيون أو السينما.

خروجاتها زادت، والبيات عند شقيقها لم يعد مقتصرًا على نهاية الأسبوع، كانت تنهض فجأة في أيّ وقت راغبة في الذهاب، لكنها لم تكن دومًا تذهب إليه، أتصل بهم للسؤال عنها فلا أجدها، ترتبك زوجة شقيقها وتخبرني بأنها ذهبت لشراء بعض الحاجيات، أو زيارة السيد البدوي كعادتها الجديدة في هذه الفترة. وكنت أصمت، ولا أسألها أين كانت.

تطالع الجرائد بنهم يزداد، بالذات جريدة جديدة معارضة، يكتب فيها الكثير من الأسماء الكبيرة، إلى جوار شباب جدد، ألاحظ أنها تقصقص صورًا ورسومات بعينها وتحتفظ بها في كراستها، كما كنت أفعل قديمًا، وأبرر تصرفاتها بأنها ربما اشتاقت لحياتها القديمة، ورؤية اسمها على الصور في الجرائد.

في المرة الوحيدة التي قررت فيه تتبعها، يوم تغيبت عن المدرسة بدعوى الإرهاق، وافقتها وغادرت البيت لأنتظر على الناصية، نصف ساعة وكانت تخرج من بوابة البيت، بنفس العباءة السوداء والحجاب، لكنها كانت تسير بإصرار، تدبدب بقدميها على الأرض ولا تلتفت حولها، تتبعتها لأراها متجهة إلى موقف المرشحة، وتركتها تركب في البيجو المتجهة للقاهرة دون أن تراني.

كانت كاميليا تسافر بانتظام إلى القاهرة كل أسبوع كما كانت تفعل

قبل زواجنا، لحظتها، عادت كل الأقاويل إلى رأسي مجددًا، ورأيتها تعود لملاقاة عشيق سري لم تتحدث عنه قط. ولم أفهم كيف يمكنها أن تفعل ذلك بعد كل هذه السنوات.

اعتقدت أن تغييرها لصالحي، وأن تغير شكلها، وزيادة عصبيتها سيجعلانها ملكًا لي وحدي، بعد أن توقفت نظرات الرجال عن ملاحقتها، واختفت نظرات الاندهاش من زواج من هي مثلها بمن هو مثلي، لكن يبدو أنها لم تتغير من الداخل، لا تزال روحها معلقة بالمدينة الكبيرة التي لم أزرها سوى مرتين.

فكرت أن وحدتنا الشديدة ربما تكون سببًا لاستهتارها، لم ننجب طفلًا ولا زرنا طبيبًا، خجلت من مفاتحتها في الموضوع، واكتفيت بالذهاب للكشف وإجراء التحاليل التي أكدت خلوي من المشاكل، لم آتِ على ذكر الأمر، ولم تهتم هي حتى بالتفكير فيه وكأنه لم يمر على بالها.

أغضبني مراعاتي لمشاعر امرأة لم تراعِ مشاعري، ولم ترَ خيانتي أمرًا جللًا، تذكرت كل التفاصيل التي كانت تتبادلها المدرسات بين الحصص، ورأيتها تتحول إلى كاميليا القديمة كلما خطت بقدميها أرض القاهرة، تنزع عباءتها لتظهر من تحتها كما كانت قبل سنوات، ثم تعود إليَّ بهذا القناع والجسد الزائف، تعاقبني على ذنب لم أقصده.

يموج الغضب في رأسي، وتزداد ارتعاشة فمي، أجلس أمام التلفزيون أقلب بين قنوات كثيرة ولا أرى شيئًا، أسمع صوت دوران المفتاح في القفل، تدخل البيت بطبيعية وكأنها لم تفعل شيئًا.

سألتها أين كانت، استشعرت هي تململي وغضبي، فقالت بأنها

ذهبت لتشم بعض الهواء، وأنها تشعر بالزهق والاختناق. لم تمنحني الفرصة لإكمال كلامي، صرخت فيَّ بأنها حرة، وبأنني لو لم أدعها وشأنها «ستطفش من البيت» نهائيًّا، ولن نعثر لها على أثر.

قررت ألا أترك الموقف يمر، بداخلي طاقة غضب لم أشعر بها قط، هاتفت شقيقها وطلبت منه الحضور، قصصت عليه ما حدث فور وصوله، وأخذت أراقب تحول وجهه للون الأحمر. قبل أن يفتح فمه، خرجت هي من غرفتها، صرخت فيه أنه لا شأن له بها، أنها حرة وستفعل ما تريد، لن يمنعها أحد بعد اليوم من التصرف كما تشاء، وأننا السبب في ضياع حياتها، وكل ما أصابها.

كانت تبكي بحرقة، كل الدموع التي لم تنزل من قبل في نهنهتها المستمرة، نزلت فجأة وكأنها كانت تدخرها بداخل عينيها منذ سنوات.

عندما نهض أخوها من مقعده أخيرًا، قال بصوت متحشرج إنها غير مرحب بها في منزله، عليها البقاء في بيتها ومراعاة زوجها، وأن تحمد الله على كوننا جميعًا قد تحملناها إلى اليوم.

ـ ألا يكفيكِ ما فعلتِهِ في أبيك؟

كان يهمس بالجملة وهو يتجنب النظر إليَّ، أما هي فتجمدت مكانها، توقفت دموعها وشعرت وكأنها ستنقض عليه أو تصرخ في وجهه، لكنه غادر المنزل فورًا، ولم يعد مجددًا.

توقفت كاميليا عن خروجاتها الطويلة، لم تعدْ هناك حجة تسمح لها بترك المنزل، فانعزلت عني في الغرفة الصغيرة، تجمع الكتب القديمة، وتقضي يومها بعد العمل في قراءتها.

لم نكن نتحدث إلا قليلًا، ولم أكن أتناول الطعام المنزلي إلا في بيت أمي، الذي أحرص على زيارته وحدي كل عدة أيام، لم يعرف أحد عنا شيئًا، ولا جربت الشكوى مجددًا إلى أخيها.

كانت زوجته تزورنا على فترات، تصحب سميّتها وطفلتها الأصغر لقضاء بعض الوقت معها، بينما انغمست أنا في الدروس الخصوصية، التي نقلتها إلى الشقة الصغيرة في الطابق الأرضي، بعد أن زاد عدد الطلبة، وزادت قدرتي على الشرح والحديث.

عندما بتنا على مشارف الألفية الجديدة، قررت ابتياع جهاز كمبيوتر خاص، كنت أحاول استخدام الجهاز العتيق في المدرسة بين الحين والآخر، أحمل عليه صور الكاميرا التي لا تتوقف كاميليا عن التقاطها، وأحفظها على ديسكات كثيرة لأجل خاطرها، وبدا لي أن شراء الجهاز سيوفر عليَّ الكثير. في هذا الوقت كان امتلاك جهاز كمبيوتر في المنزل مقتصرًا على المرفهين أو العاملين في مجالات متخصصة، لكني منحت نفسي هذه المكافأة الصغيرة، وانشغلت بتعلم طريقة الاستخدام والكتابة عليه، تعلمت أيضًا طريقة الاتصال بالإنترنت عن طريق الهاتف المنزلي، وبدأت في تصفح العالم الواسع.

كاميليا أيضًا أحبت هذا العالم، باتت قادرة على مشاهدة كل الصور القديمة التي التقطتها من قبل، وحفظ الجديدة أولًا بأول، لتعيد النظر إليها على الشاشة طوال النهار. كما بدأت في تعلم طريقة الدخول على الإنترنت، كانت تبحث على محرك البحث عن كتّابها المفضلين، وتقرأ الجرائد الأجنبية. وتتصفح الصور واللوحات لفنانين لا أعرفهم.

على عكس ما توقعت، لم تساعد الكاميرا ولا الريسيفر ولا الكمبيوتر في تقريبي من كاميليا، على العكس، بات كل منا في عالم منفصل، لا نتبادل الحديث تقريبًا، تجلس في غرفتها طوال النهار أمام الكمبيوتر، وأجلس طوال الليل أمام التلفزيون.

تزداد غرابة، وتزداد انعزالًا، وعلمت أنها توقفت عن زيارة الأضرحة والسيد البدوي، لكنها تنزل كل يوم لتهيم على وجهها في المدينة، وعلمت أنها تجلس على المقاهي الشعبية، وتصور العابرين بلا استئذان.

توقفت عن سؤالها عما تفعل منذ زمن، عدت وحيدًا كما كنت، وعلمت أن الحياة لا يمكن أن تمنحني فرصًا مجانية، وأن الفتاة التي حلمت بها يومًا كانت مجرد قشرة زائفة، جميلة ومغشوشة، جنونها المستمر لم يمنحني الفرصة للتنفس، الانكشاف جعلني أكثر كآبة، والزمن الذي يسير بسرعة البرق حال بيني وبين تصحيح الأمر، استسلمت للحياة، ولم أعد آبه بما يحدث، حتى عندما رأيت المواضيع التي تبحث عنها ليلًا ونهارًا على الإنترنت، وشعرت بالرجفة تغمرني من هذه السيدة الغريبة التي تشاركني سقفًا واحدًا.

شرعت أتأملها، تزداد قتامة كل يوم، كان لونها يتحول للأسود، وكأن عباءتها تتمدد وتخفيها، لم يعد الصوت يصدر عنها، تسير على الأرض تصدر حفيفًا، توقفت عن الذهاب إلى العمل، تهددها جوابات الفصل كل حين، تختفي طوال اليوم، وتعود لتغلق عليها غرفتها وكأنها كهفها السري، كان العالم يزداد ثقلًا من حولي، وشعرت بأنني أرغب في التخلص منها.

أسير في شوارع المدينة التي ضاقت على ساكنيها، الصخب

يحيط بي، وأنوار المحلات تضايق عينيّ، أفكر كيف يمكن للحب أن يتحول إلى نفور عميق، وأن يتحول الوجود الذي كان يفرحني إلى وجود سام يؤرقني. أشعر بأن الحياة انفلتت مني، وأنني راغب في البدء من جديد.

مساء ذلك اليوم، طرقت غرفتها المظلمة، ودخلت واقفًا أمامها بثبات وحزن، أخبرتها بأن عليها أن تترك البيت، وتعود إلى بيت شقيقها. لم تنبس بكلمة، ظلت تنظر إليَّ بإشفاق غريب، وفي عينيها تعود نظرة الحزن القديمة نفسها.

من غرفتي، سمعت صوت خطواتها الذي أحفظه، تتجه صوب باب الشقة، تفتحه وتغادر. في ظهر اليوم التالي، بعد عودتي إلى المنزل، هاتفني شقيقها ليسألني إن كانت قد عادت إلى البيت، كنت ممسكًا بخطاب فصلها من العمل، لحظتها أدركت ما حدث، وعلمت أنني لن أراها مجددًا.

١٤

في السايبر، جلست إلى أبعد جهاز عن المدخل حتى لا يمر أبوها صدفة ويراها، وضعت السماعات وساعدها محمد في تشغيل السي دي على الكمبيوتر، جلست تنصت إلى كل كلمة. ينبهها محمد إلى تأخرها فتومئ برأسها وتواصل الاستماع. في النهاية، أخرجت السي دي ووضعته في حقيبتها المدرسية مع الكاميرا، ونهضت من مكانها.

سألها محمد عن سر شحوبها فلم تجبه، كانت تنظر إليه بنفس نظرة عمتها الأخيرة إلى جمال، بشفقة ممتزجة بحزن كبير. رأت حياتها القادمة كلها معه، كيف ستصبح نسخة من حياة عمتها، كيف سيعيد الزمن نفسه دون تغيير، شعرت بنفَسها يتسارع وقلبها يهوي إلى أسفل قدميها.

سارعت بالعودة إلى المنزل، لم تتمكن أمها من سؤالها عن سر تأخرها بسبب امتقاع وجهها الشديد، سألتها عما أصابها فأخبرتها بأنها مريضة جدًّا، تشعر برغبة في التقيؤ، لمستها أمها فلسعتها سخونة جبينها، شعرت بالذعر ودفعتها إلى الحمام، وضعتها أسفل الدش ثم لفتها بالمنشفة مثل الرضع، ودفستها في سريرها، أعطتها خافضًا للحرارة وأعدّت لها كوبًا من الشاي بالليمون، وطلبت من أختها الابتعاد عنها والنوم في غرفتها حتى لا تصاب بالعدوى.

بعد مغادرة أمها وأختها للغرفة، نهضت كاميليا من السرير، فتحت حقيبتها وأخرجت الكاميرا، كانت تحوي بطاريات جديدة بالتأكيد

زودها بها جمال، اشتعل ضوء الشاشة بمجرد ضغطها على زر التشغيل الأسود على اليمين. لم تتعامل من قبل مع كاميرا رقمية، لكنها تمكنت بسرعة من الوصول إلى الصور المختزنة، عادت إلى السرير وغطت وجهها باللحاف البارد، وظلت طوال ساعتين تتأمل تفاصيل كل صورة التقطتها عمتها بنفسها ذات يوم. شعرت بأنها اخترقت حاجزي الزمان والمكان، وأنها صحبتها في رحلاتها إلى القاهرة، رأت الطريق الزراعي والمساحات الخضراء على الجانبين، باعة البوظة البيضاء والذرة المشوية يقفون وسط الطريق أمام السيارات بلا خوف، رأت مدخل القاهرة، وكورنيش النيل، مبنى ماسبيرو وميدان التحرير، رأت واجهات المحلات القديمة، ومبنى الجامعة الأمريكية، مشت في شوارع محمد محمود وعبد الخالق ثروت، تأملت السائرين أمام مجمع التحرير، والفتيات الخارجات من باب مدرسة الراهبات الفرنسيسكانيات، شعرت بطعم مختلف لتوزيع الناس داخل الحافلات جلوسًا ووقوفًا، ولضوء المترو الساطع من آخر النفق.

عندما عادت أمها للاطمئنان على درجة حرارتها، أخبرتها بأنها لن تتمكن من الاستمرار في هذه الخطبة، وأنها لا تريد سوى إكمال دراستها ودخول الكلية. لم تتمكن أمها من الجدال معها بسبب حالتها، نقلت ما قالته لأبيها فانشرح صدره، سارع بالاتصال بمحمد لإخباره بالأمر، تظاهر بالحزن وهو يقول إن كل شيء قسمة ونصيب، ويخبره بأن لا يكلف نفسه مشقة المرور عليهم. سيمر هو عليه ليعطيه هداياه ودبلته.

رفض محمد استعادة أيّ شيء، وظل يتساءل عن سبب التغيّر

المفاجئ، بالتأكيد أجبرها أبواها على ذلك، حتى إنها تغيبت عن المدرسة لأسبوعين كاملين، كان يقف أمام المحل في مواعيد خروجها من المدرسة ولا يراها، وبعد أسبوعين، بدأت تظهر متحصنة بصديقتين تحيطان بها من كل جانب، تمشي بسرعة وتنظر إلى الأرض، بينما تسدد صديقتاها نحوه نظرات نارية محذرتين إياه من التفكير حتى في الاقتراب.

استسلم محمد للأمر الواقع، لكن تساؤله عن سبب تغيرها ظل يؤرقه، حتى سمع زغاريد أمها يوم نتيجة الثانوية العامة، وعلم أنها اجتازتها بمجموع جيد.

صمم على إكمال دراسته هو الآخر، التحق بكلية التجارة في الجامعة المفتوحة، وسحبته الحياة بعدها فلم يعد يشعر بالإهانة كلما رآها تغادر بيتها مساء كل سبت للذهاب إلى الكلية، وتعود مساء الخميس للبقاء في عطلة نهاية الأسبوع.

١٥

عندما عبرت بوابة كلية الفنون التطبيقية، لأول مرة، شعرت بأنها تعبر إلى عالم مختلف، تمامًا كما ذابت عمتها في المرآة أمامها. كان كل شيء مختلفًا حتى عما تخيلته. في يومها الأول جلست بسكون على مقعد خشبي تتأمل كل ما يدور حولها، الفتيات وملابسهن الأنيقة، الفتيان بأصواتهم العالية ودخان سجائرهم، المباني الكبيرة، والأوراق الملصقة على الجدران، الأشجار المشذبة المصفوفة بعناية.

لم تقلق من وحدتها ولم تستسلم للارتباك الأول، كانت تستكشف كل مكان وكل مبنى بابتسامة، تسأل عن كل شيء بلا خجل، تنضم إلى نشاط يعلن عنه، وتمازح الجميع وكأنها نشأت معهم.

حتى المدينة الجامعية لم تبدُ لها بالسوء الذي تصفه بها زميلاتها، تسير في الطرقات البيضاء الواسعة المعبقة برائحة الفنيك وكأنها تسير على السحاب، ترى غرفتها الصغيرة قصرًا، زينت دولابها الرمادي الصفيح بالملصقات والصور، اختارت السرير السفلي وأحاطته بستائر اشترتها بنفسها، فشعرت بأنها تنام داخل صومعة مكنتها من تزيين مساحة الحائط بمزيج من صور عمتها والصور التي التقطتها بنفسها بعد طباعتها. وضعت لنفسها حدودًا صغيرة فانفتح لها العالم كله، ولم تعد تشعر بالغربة التي شعرت بها طوال حياتها.

اعتادت كاميليا على حمل مستطيل ورقي مفرغ قصته بيدها، لترى العالم من داخل كادر محدد واضحة حدوده، باتت قادرة على

اختزال الجمال واستبعاد القبح. اشتركت في كل النشاطات، وذهبت للرسم الخارجي في غير أوقات الدراسة مع أعضاء الأسر الطلابية في القلعة والحسين والسيدة عائشة وحديقة الأسماك. كانت تفضل التصوير لكنها أدركت أن الرسم طريقها للذوبان في عالم الصورة، وتفكيك تفاصيلها وحل درجات ألوانها بمجرد النظر.

عندما أمسكت الفرشاة لأول مرة، شعرت بألفة غريبة، تذكرت حبها القديم للرسم وتخللت الألوان عينيها لتمتزج بلا جهد في عقلها، تحرك فرشاة على الباليت الخشبي، فتنتابها رعشة لذيذة، تضع أول الخطوط على فرخ الكانسون المشدود على الشاسيه الخشبي، فتنقلها رائحة اللون ورائحة الورق الجاف إلى عالم آخر لطالما حلمت به.

عندما طلب منهم المعيد رسم لوحة لمشهد لا يغادر خيالهم، وجدت نفسها ترسم حلمها الذي لم تتوقف يومًا عن التفكير فيه، امرأة يغمر الضوء ظهرها، تذوب في مرآة بيضاوية كبيرة، يظهر انعكاس وجهها فيها باهتًا وضبابيًّا، لكن نظرة عينيها تبدو واثقة وكأنها وجدت الخلاص.

بعد انتهائها منها، وقفت أمامها تتأملها، شعرت بأنها تمكنت أخيرًا من حبس اللحظة وإيقاف الزمن، غمرتها الدهشة، وظلت واقفة ممسكة بفرشاتها لدقائق طويلة، شعرت بالدماء داخل جسمها تتغير، أن العالم من حولها يتغيّر، وأنها ـ وحدها ـ السبب في ذلك.

١٦

مات أبوها أثناء نومه، لم يعذب أحدًا بالانتظار، استيقظت أمها لتجده قد فارق الحياة إلى جوارها. اتصلت بكاميليا في السادسة صباحًا لتقطع عليها حلمًا غريبًا رأت فيه أباها ممسكًا بيد عمتها، كان أصغر سنّا، وسيمًا بعينين لامعتين، يرتدي بدلة لم ترَها عليه من قبل، نادت عليهما فلم يسمعاها. كانت تفكر في اللحاق بهما عندما أيقظها رنين الهاتف.

لم تستوعب لوهلة ما تسمعه، كانت تعتقد أن أمها تضحك لتتبين بعد ذلك أنها كانت تبكي، شعرت بأنها تائهة، نسيت طريقة ارتداء الملابس وحمل الحقيبة، نسيت كيف تفتح الباب، وتنزل الدرج. عندما وصلت أخيرًا إلى الشارع أفاقها الصخب والسيارات المارقة بجانبها، أشارت لأول سيارة أجرة متجهة إلى محطة القطار.

وصلت إلى البيت والرجال يستعدون للغسل، طلبت لحظة واحدة تودعه فيها. بدا وكأنه نائم، وجهه مرتاح وعيناه منسدلتان. راقبت صدره لترى إن كان هناك أي نفس متبقٍّ فلم تجد، تذكرت عندما كانت تراقب صعود وهبوط صدر شقيقتها وأمها وأبيها وهم نائمون ظهرًا لتشعر بالونس، شعرت وصدر أبيها ثابت لا يتحرك بالوحدة، وكأنها تستند بظهرها إلى العدم.

كانت أمها متماسكة، تقف بصلابة لتشرف على كل شيء، أما هي فاكتفت بالجلوس في ركن منزوٍ من الصالة مع شقيقتها في انتظار

انتهائهم من الغسل، بكت بصمت وهي تنظر إلى صورته التي علقها بنفسه قبل شهور على جدار الراحلين.

بعد الدفن، وقفت أمام المقبرة مندهشة، مجرد جدار عادي مدهون بالأزرق الفاتح هو الفيصل بينها وبين أبيها، هو الفيصل بين عالمين مختلفين، لم تتمكن من استيعاب الفكرة. اقتربت من الجدار تلمسه بيدها، كان باردًا جدًّا، تساءلت: ما الذي يحدث بعد الموت، بعد الانتقال إلى هذا العالم خلف الجدار الأزرق؟ ماذا لو صوبت كاميرتها باتجاهه؟ هل تمكنها حساسيتها من التقاط صورة واضحة للموت؟

استسلمت للاكتئاب لأيام، لم تدرك أنها كانت تحب هذا الرجل إلا بعد رحيله، بشكل ما تحولت كل صفعاته إلى ذكريات مضحكة، كل صرخاته وصوته العالي الذي لم تكن تطيقه إلى أمور عادية. كل مساء، تستعيد صورته وهو ميت، وتشعر بالشفقة لأنه يخوض هذه التجربة وحده، بالحزن لأنها بقيت على الأرض بينما اختفى هو، تلاشى وجوده وكأنه لم يكن. تحاول أن تفهم ما الذي شعر به، وفكر فيه وشاهده، يكاد عقلها ينفجر من الأسئلة، وتطاردها الفكرة طوال الوقت فتغرق نفسها أكثر في محاولات حبس الحياة. تلتقط الصور باندفاع جنوني، تلهث وراء الكادرات، تنزل من البيت في السادسة صباحًا لتراقب كل شيء، حركة التلاميذ في الشوارع، عراك القطط أسفل السيارات، رءوس العشاق المتجاورة على كورنيش النيل، القطار القادم من بعيد. تجلس على المقاهي تتأمل الوجوه والحركات، السيدات الصاخبات اللاتي يتحدثن في وقت واحد، الرجل الجالس أمام اللاب توب يكتب ويدخن، الفتاة التي تتحدث في الهاتف بانفعال.

شعرت أنها أكثر إدراكًا، وتمكنت شيئًا فشيئًا من استعادة إحساسها بالموجودات. بدا وكأنها تمتص الحياة من كل شيء حولها، تخزنها على كاميرتها، وتستعيدها كل مساء قبل أن تنام.

عرفت أن الحياة تسير، يوم شاهدت أختها في فستان أبيض تزف إلى عريسها، حتى أمها نزعت الحزن عن وجهها واستبدلت به ابتسامة عريضة وعباءة سوداء لامعة، رقصت كثيرًا في حفل الزفاف الصغير، نسيت لأول مرة الكاميرا التي تحملها واندمجت في التعبير الحسي عن السعادة، لم تفكر ليلتها في المسئولية التي ستوضع على كاهلها، بعد أن تسافر أختها مع زوجها ويخلو البيت على أمها. لكنها تمكنت بعد ذلك من تنظيم حياتهما معًا، تحدثها يوميًّا في الهاتف وعلى برنامج سكايب، وتزورها كل خميس لتظل معها إلى صباح السبت، ثم تعود من جديد إلى القاهرة.

عملت بكل جهدها لتؤمِّن لنفسها دخلًا يكفي للانتقال من الشقة الصغيرة التي تعيش فيها مع فتاتين أخريين في شارع مصطفى النحاس، إلى شقة خاصة يمكنها فيها أن تجلب أمها للعيش معها، صباحًا في مدرسة خاصة بعقد مؤقت لتدريس الرسم، وليلًا مصورة فوتوغرافية محترفة للحفلات والمناسبات. أنشأت صفحة على الفيسبوك لنشر صورها والدعاية لعملها، كانت التقييمات على صفحتها تزيدها ثقة في نجاحها، وتثبت مهارتها في تسجيل اللحظة وتخليدها في صورة لا تشبه غيرها.

عندما تمكنت أخيرًا من تحقيق ذلك شعرت بأن حياتها صارت أكثر استقرارًا. إقناع أمها بالانتقال لم يكن صعبًا إلى هذا الحد، أو أنه لم يكن صعبًا عليها هي، فقد اكتفت أمها بالصمت والموافقة،

بعد أن باتت تشعر بأن الأوضاع تغيرت، وأن ابنتها صارت هي الأم، بينما صارت هي الطرف المستسلم، كما كانت ابنتها في وضع سابق.

لم تعد أمها تفعل شيئًا بحيوية كما كانت قديمًا، تعد الطعام أو تشاهد التلفزيون، تحدث ابنتها بإيجاز، وتجلس معها أحيانًا في المساء لتشربا الشاي وتقزقزا اللب أمام أيّ فيلم عربي قديم.

مع الوقت، تخلَّصت من مشاعرها القديمة تجاه أمها، تحول الجفاء من جانبها إلى شعور أقرب للشفقة، تنظر إلى ملامحها المتعبة والتجاعيد المحيطة بعينيها وشفتيها وتشعر بمزيج من الحزن والخوف، لم تعد قادرة على تصديق أن هذه السيدة فعلت أيّ شيء شرير في حياتها، التمست لها الأعذار فجأة، وأصبح بإمكانها رؤية الصورة بشكل أوضح، وفهم كل شيء.

انحلال الصورة

من أوراق كاميليا عاطف

قرأت الأمير الصغير للمرة الثانية، وتعجبت جدًّا من كل ما لم ألاحظه في مرتي الأولى، يبدو أن الزمن يؤثر حتى على فهم الروايات، عندما قرأتها أول مرة شعرت أنها عادية أو غير مفهومة، ثمة تفاصيل غامضة فيها، لم أدرِ إن كانت ساذجة للغاية أو أنني غير قادرة على استيعابها.

لكن في هذه المرة بكيت كثيرًا، تمكنت أخيرًا من فهم اغتراب الأمير الصغير عن كل شيء حوله، توهانه في أحلامه وإخلاصه للوردة غير الفريدة بالنسبة إلى الجميع، لكنها كذلك بالنسبة إليه على كوكبه الصغير. وقتها فهمت أن حسّي بالحياة قد اختلف، وأنني أشعر مثله بالاغتراب، وأسعى مثله للعودة إلى موطني ولو كان الطريق إليه أشق وأصعب.

لم أعد أتخيل أنني أحادثك عند كتابتي لهذه الرسائل، صورتك المتخيلة تذوب أمام عينيّ. وبدأت حتى في التشكك في حقيقة وجودك، كأنك كنت قصة بعيدة في حياة سابقة غريبة.

أشعر أن وجودي مؤذٍ لكل من حولي، حرمني أخي من رؤية بناته، وحرمت نفسي من مغادرة المنزل والتقاط الصور، أقضي الوقت أمام الإنترنت الذي صمم جمال على الاشتراك فيه.

مقاهي الإنترنت تنتشر بسرعة مذهلة، حتى جمال بدأ في التفكير في استثمار المحل المغلق أسفل العمارة في افتتاح أحدها، مهووسًا

بكل ما له علاقة بالتكنولوجيا، بينما أحارب أنا كل يوم في محاولة لفهم طريقة التجول على المواقع، وقراءة الأخبار.

بدا وكأن كل الحلول موجودة على هذه الشبكة، ووجدت لذة جديدة في كتابة أسئلتي الغامضة على محرك البحث، وقراءة المواضيع المتعلقة رغم أنها تبتعد تمامًا عن سؤالي وتلقي بي في أماكن أخرى.

كنت أسأل جوجل: ما الزمن؟ فيجلب لي كل ما أود قراءته عن فلسفة الزمن، وتعريف العلماء، وتصوراتهم، أكتب العودة بالزمن إلى الخلف، فيجلب لي مئات النظريات التي يضعها العلماء كل يوم، وحتى أخبارًا عن اختراعات لآلة زمن في أمريكا وبريطانيا.

أكتب اسمك فتظهر العديد من الصور للوحاتك، هناك خبر صغير عن معرض جديد تفتتحه بعد أيام في قاعة عرض في الزمالك، أحفظ العنوان والتاريخ، وأدقق النظر في لوحاتك، أتمنى لو رأيت طيفًا مني في واحدة منها، لكنها كلها كانت جافة بلا روح، ضربات فرشاة في فضاء شاسع. وبدا لي أنك نقلت نفسك إلى مرحلة جديدة تواكب فيها الموضة، كما كنت تفعل في السابق.

تأملت ألوانك الممزوجة معًا في كيانات غير مترابطة ولم أفهم ما الذي تحاول إيصاله، لم يكن هناك أي جديد في خطوطك ولا انطباعاتك. شعرت بأنني أمام أعمال غير أصيلة لشخص يتخذ من الفن ستارًا وطريقة للتميّز، وعدت من جديد إلى صوري التي ألتقطها في شوارع القاهرة، تحسرت على حياتي الضائعة من أجل شخص لا يملك شيئًا. لو كنت أكثر ذكاءً، لكانت صوري هي التي تُعرض

في المعارض، ولوحاتك تباع في الجاليريهات المجهولة لتزيين صالونات البيوت المتوسطة.

كان الحقد دخانًا أسود يتصاعد إلى رأسي، ونظرت إلى جميع من حولي لأجدهم تقدموا في حياتهم باستثنائي، أخي يمتلك عائلة وحياة مستقرة، زوجي غارق في مشاريعه الاستثمارية في مجال التكنولوجيا، ودروسه اليومية في شقة الطابق الأرضي، بينما أجلس أنا مكاني في غرفة مظلمة طوال النهار، أفكر في طريقة للعودة بالزمن إلى الخلف.

يومها ارتديت ملابسي ببطء، وتوجهت إلى الموقف مرة أخرى، قررت أن أعود إلى القاهرة لمرة أخيرة، في ثاني أيام افتتاح معرضك، أردت أن أتأمل هذه اللوحات عن قرب، ربما أن أراك أيضًا، وأستعيد ملامحك وصوتك، ربما أفهم لماذا فعلتُ بنفسي كل ذلك.

الطريق طويل، غير ممهد، ينطلق الميكروباص بسرعة جنونية، فيتقافز جسمي على الكنبة الخلفية لأعلى وأسفل، أحاول إسناد رأسي على زجاج النافذة، فيرتطم به في خبطات صغيرة متتالية، أشعر بمخي يترجرج، ولا أتمكن من إغلاق عينيّ. من الشباك يهب الهواء الساخن المشبع برائحة الدخان من حقول على جانبي الطريق، فتهتاج جيوبي الأنفية، كان الهواء مصفرًا، وثمة شعور غريب بأنني أقترب من نهاية العالم.

هذا السكون الأصفر انتهى بمجرد وصولي إلى مشارف القاهرة، وعندما هبطت من الميكروباص، شعرت برغبة في التراجع عن قراري، والعودة في أول سيارة متجهة إلى طنطا، لكنني كنت قد انطلقت في مساري، ولم يعد هناك مجال للتراجع.

لم تكن بي طاقة للمشي ولا لتأمل التفاصيل من حولي، توقفت رغبتي في التقاط الصور، وشعرت بأن هذا اليوم يجب ألا يُسجل، أنتقل من مواصلة إلى أخرى لتقريب المسافة إلى الزمالك، ركبت ميكروباصًا إلى رمسيس، ومنه أوتوبيسًا صغيرًا أنزلني على ناصية شارع إسماعيل محمد، كانت القاعة قريبة من كلية الفنون الجميلة، أشار لي السائق بيده أن أسير إلى نهاية هذا الشارع ثم أنعطف يمينًا.

فعلت كما قال، كان الشارع هادئًا مظللًا بالأشجار على الجانبين، والسكون يبدو غريبًا على أذنيَّ بعد كل صخب الطريق، كان السكون ثقيلًا، حتى إنني فكرت بأنه ربما يكون مقدمة لكارثة قادمة.

صاحبني السكون حتى وصلت إلى القاعة الصغيرة الواقعة بعد بوابة الكلية ببضع بنايات. صالة صغيرة علقت فيها اللوحات متفاوتة الأحجام، فارغة إلا من بضعة أشخاص يقفون أمامها أو يتحدثون في جانب القاعة.

وقفت أمام لوحة لرجل بعينين عميقتين، يسند جبهته على قبضة يده واضحة العروق، وشعرت بأنها لقطة لأحمد مظهر من فيلم الناصر، ولم أفهم لماذا تم استنساخها كلوحة فنية في معرض فني.

عندما اقتربت مني عرفتك دون جهد، دون حتى أن أضطر للالتفات، تقف ساكنًا واضعًا يديك خلف ظهرك، تتأمل معي اللوحة وكأنها ليست لوحتك. تسألني: ما رأيك؟

صمتّ لدقائق، قبل أن ألتفت إليك، عندما نظرت إلى وجهك استعاد عقلي ملامحك فجأة، استعاد تفاصيلك وابتسامتك وإيماءاتك، لم يتغير وجهك سوى من لحية خفيفة تحيط بوجنتيك،

ترتدي سترة قديمة وبنطلونًا قماشيًّا رماديًّا، تنظر إليَّ نفس نظرتك القديمة، وكأننا لم نفترق قط، لمعة عينيك كما هي، وكأن الزمن لم يحدث فيَّ فارقًا، وكأنك لم تعش حزنًا و تفتقد حبًّا.

هل تعرف ما الغريب؟ الغريب أنني لم أشعر بأيّ شيء، ولا أي ذرة مشاعر تجاهك، تبدد الحب كأن لم يكن، وبدوت لي مجرد رجل مسكين يقف في معرض فارغ أمام لوحة رديئة.

كل الكلام الذي أعددته لك تبخر، كنت تنظر إليَّ بلهفة، تنتظر إجابتي، تنتظر أن أتحدث؛ ربما لتتأكد من صوتي أنني أنا، لكني لم أقوَ على النطق، كان إحساسي باللا شيء قاسيًا كنصل سكين يخترق قلبي، وشعرت بالبرودة تكتنف كياني، ولم أتمكن حتى من التنفس.

اكتفيت بهزة من رأسي واندفعت مغادرة المكان، استعدت القدرة على التنفس خارج القاعة، وأدركت أن لقاءنا لم يكن أسطوريًّا كما تخيلته كثيرًا، لم يكن شيئًا على الإطلاق، وكأن معرفتنا كانت عابرة إلى هذه الدرجة، وكأننا راكبان يوميان في المواصلات العامة يجلسان متجاورين كل يوم دون كلمة، وكأننا لم نكن ذات لحظة، شخصًا واحدًا في جسدين، وكأننا لم نتعانق يومًا، لم ننظر إلى بعضنا البعض يومًا، لم نكن شيئًا في أيّ يوم.

لم تكن الكارثة في دويها أو ضخامتها أو في قسوة ردود الأفعال، بل كانت في صدمة انسياب الزمن الذي لا يتوقف، والذي لا يمكن منعه أو مقاومته.

عندما تذكرت جسمي الخالي من الحياة والطاقة بعد رحيلك، وعينيّ المعلقتين في السقف دون حراك، وعظامي التي آلمتني

طويلًا من فرط الاشتياق، شعرت برغبة في الضحك بصوت عالٍ، واضطرب قلبي من تغيّره، ثم خنقتني الرغبة في البكاء.

مشيت كثيرًا جدًّا دون أن أشعر، تحولت شوارع القاهرة إلى شوارع عادية بلا أي ذكريات، لم أعد راغبة في تسجيلها أو التأمل فيها، حزنت لانتهاء حياتي كما كنت أعرفها، وشعرت بخواء كبير يسيطر على عقلي وقلبي، وكأنني غير مدركة لما حولي، لا أعرف إلى أين ينبغي عليَّ الذهاب، ولا ما الذي يجب عليَّ فعله في سنين حياتي القادمة.

في طريق العودة، سندت رأسي على زجاج النافذة، كانت أعمدة النور تتسارع بجواري على جانبي الطريق، وخيل إليَّ أنها صنعت ما هو أقرب لنفق نوراني جدرانه الأعمدة وسقفه الأقواس المضيئة الواصلة بينها، كانت الصورة أمام عيني تنحل، تهتز وتتشوش والغريب أنني كنت أرى التفاصيل بشكل أوضح، ذرات الهواء، شكل الخدوش على جذوع الشجر، آثار الإطارات على الأسفلت، اندفعت في هذا النفق بسرعة خارقة، ولم أعرف ما الذي ينتظرني على الجانب الآخر.

كان البيت فارغًا عند وصولي، جلست بملابسي أمام جهاز الكمبيوتر في غرفتي المظلمة، أبحث عن صور لعمدان الإنارة على الطريق السريع، وأتساءل: هل الحياة كلها محض حلم؟ عندها شعرت بجمال يقف أمامي مباشرة، النور القادم من الصالة خلف ظهره يجعله أقرب لشبح مظلم لا أتبين ملامحه، وددت لو اعتذرت له، وطلبت منه أن نكمل حياتنا معًا، أو نبدأها من جديد. لكنه سبقني بصوته المهزوز طالبًا مني مغادرة المنزل، والعودة إلى منزل أبي.

لم يزد في كلامه، ولم يعاتبني بكلمة. لكنني نظرت إليه طويلًا هذه المرة، وشعرت بأنني أحب هذا الرجل الذي لطالما تحملني بصبر، وأن أقل شيء يمكنني أن أفعله له، هو تركه وشأنه ليبدأ حياة جديدة وحده.

بعد ساعات قليلة كنت قد أخذت قراري، تمامًا كما فعل الأمير الصغير، عزمت على العودة إلى عالم آلفه ويألفني، أتمكن فيه من استعادة الشعور بالسكون التام الذي أشتاقه. لم أهتم بالثمن الفادح الذي عليَّ دفعه، كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي أتخذ فيها قرارًا بنفسي دون أن يتمكن أحد من منعي.

وشعرت أن القيود حول عنقي أخيرًا قد انحلت.

١٧

قررت أمها السفر إلى شقيقتها للبقاء إلى جوارها في أشهر حملها الأخيرة، كانت متلهفة لرؤية حفيدها الأول، حتى إنها ضحت بحضور خطبة ابن شقيقها الأصغر، طالبة من كاميليا أن تحل محلها في ذلك.

لم تتمكن كاميليا من الهرب من مسئولية حضور الخطبة بدلًا من أمها، إلى جانب توسلاته لها أن تصور هي الحفل. فكرت بأن الجميع نجحوا في الهرب من هذا المنزل بالسفر أو الموت أو الاختفاء عداها، دائمًا تعود إليه، وكأنه يجذبها باستمرار بخيط غير مرئي، كأنه يتغذى عليها أو تتغذى عليه. لكنها لم تشعر بالغضب، على العكس، غمرها إحساس بالامتنان، وكأن البيت يدرك وحده أهميتها من البداية، وكأنها بطلته وسبب استمراريته.

كانت مطمئنة إلى أنها قادرة على الرحيل والعودة متى شاءت، لم تعد للبيت هذه السلطة المفزعة عليها، وتذكرت يوم عقدت ملاءات السرير لتدليها من شرفة غرفتها كي تهرب عبرها. ثم اكتشفت أنها لا تصل حتى إلى الأرض فسحبتها من جديد. ضحكت من أفكارها الماضية والقيود الغريبة التي كانت تحكمها. اليوم تملك مفتاح الباب في حقيبتها، ومعه مفاتيح أخرى كثيرة تشعرها أكثر بحريتها.

رتبت نفسها على الحضور صباح يوم الزفاف، تغيير ملابسها في البيت الخالي، ثم المغادرة بعد الحفل مباشرة.

انطلقت بسيارتها في الصباح الباكر، ووصلت والمحلات تفتح أبوابها، والبائعات يستعددن لرص بضائعن من خضر وفاكهة أسفل العمارة.

مرت على محل محمد الذي تغير من مقهى إنترنت إلى محل لبيع وصيانة الهواتف المحمولة، رأته وهو يستعد لفتح الباب الجرار، فكرت في الترجل من السيارة وإلقاء التحية عليه ثم عدلت عن ذلك. كان يتحدث كثيرًا في كل مرة تمر عليه فيها لشراء كارت شحن، يريها صور أطفاله الثلاثة على هاتفه ويحكي عن آخر مغامراته معهم. لم يتحدثا قط عما حدث بينهما منذ سنوات، لكنه كان يتحدث عن أطفاله وهو ينظر إليها بتمعن محاولًا أن يلمح ولو ذرة ندم طفيفة في عينيها على عائلة كان يمكن أن تكون عائلتها.

لم تحرمه من هذا الشعور، فكانت تتظاهر أحيانًا بالحزن للحظات، أو تلقي كلمة مصطنعة، بمزاح مبطن تعبر بها عن خسارتها الشديدة، وتستمتع برؤية نظرة الارتياح في عينيه قبل أن تذهب.

لكنها في هذا اليوم، شعرت بأنها غير قادرة على المجاملة ولا التظاهر، كانت مرهقة، يمتلئ قلبها رهبةً من أطياف البيت الخالي، صعدت السلالم الرطبة بوجل كأنها غريبة، فتحت الباب بهدوء، ونظرت لداخل البيت الفارغ، ثم دخلت وأعادت إغلاق الباب بالمفتاح بإحكام. سارعت لتشغيل التلفزيون على قناة الأغاني، وفتحت شيش الشرفة عن آخره، وكل أضواء المنزل.

كانت تبيت في أحيان كثيرة وحدها عندما تسافر شريكتا السكن إلى بلدتهما وتبقى هي بسبب العمل، لكنها لم تشعر قط بالخوف مثلما شعرت به هذه المرة.

بدلت نظرها بين صور الراحلين على جدار الصالة، وفكرت في نزعها جميعًا وتخزينها في أي غرفة. لكنها عوضًا عن ذلك، بحثت عن المرآة القديمة البيضاوية في جميع الغرف. وجدتها أخيرًا مغطاة بملاءة بيضاء في ركن غرفة أبيها، حملتها ومسحت التراب عنها، وسندتها على الجدار المقابل للصور لتتمكن من تبديل ملابسها ووضع مكياجها أمامها في الصالة، دون الاضطرار للوقوف وحدها في الغرفة الداخلية.

بمرور الوقت، ومع تزايد ضوضاء السوق أسفل الشرفة، تمكنت من استعادة شعورها بالاطمئنان، تحركت بحرية في بيتها، أخذت حمامًا، وطلبت غداء من مطعم قريب. شاهدت فيلمًا عربيًّا قديمًا، ونظفت عدسات كاميرتها، تصفحت الفيسبوك، وهاتفت أمها وشقيقتها على برنامج سكايب. أخرجت فستانها من الحقيبة، وحضرت أدوات الماكياج، ووقفت أمام المرآة تستعد للحفل.

ارتدت فستانها الوردي القصير، وانتهت من وضع اللمسات النهائية لمكياجها، مشطت شعرها المموج بيديها ليستعيد بعضًا من حيويته، نظرت إلى نفسها نظرة نهائية راضية في المرآة.

كان الضوء الخافت لشمس المغيب يتسلل من الشرفة. يضفي على وجهها جمالًا مختلفًا عن كل يوم. لاحظت أنها منذ زمن بعيد لم ترَ طيف عمتها في انعكاسها، لا تراها تذوب أمامها في أيّ مرآة أو زجاج معتم كما كانت تفعل. لم ترَ في المرآة سواها، شعرت بأن ملامحها قد تغيرت، لم تعد تشبهها إلى هذا الحد، استطال وجهها وسكنت نظرة عينيها.

لمست انعكاس وجهها بيدها فشعرت بالملمس البارد للمرآة، كانت مجرد سطح مصقول أمامها لا يؤدي إلى أيّ شيء، واكتشفت أنه لا يوجد سوى عالم واحد، حياة واحدة يجب أن تعيشها.

أخرجت الكاميرا من الحقيبة، وعادت تقف أمام المرآة من جديد، التقطت صورة لانعكاسها المبتسم، تأملتها للحظة قبل أن تقرر نشرها على الفيسبوك، عندما رفعت عينيها وقع نظرها على صورة عمتها المعلقة على الحائط، وجهها صافٍ وعيناها تنظران بثبات، وبدا لها أن ابتسامتها في الصورة قد اتسعت.